بــين المنهجــين
الاســـدلالى والتجـريبى
فى إثبات وجود الله
(مدخل إلى صياغة جديدة لعلم الكلام)

دكتـــورة
انشاد محمد على عبية
المدرس بقسم العقيدة والفلسفة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الازهر ـ فرع البنات

عناصر البحث :

* مدخل رسالة علم الكلام .
* أدلة حدوث العالم كمقدمة لاثبات وجود الله عند المتكلمين .
* الاعتراضات على أدلة المتكلمين .
* أدلة الفلاسفة على وجود الله ونقدها .
* أدلة العلوم التجريبية على وجود الله .
* موازنة بين المنهجين : الاستدلالى والتجريبى .
* تفسير الصراع بين الدين والعلم .
* نتائج البحث .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

رسالة علم الكلام :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وبعد ...

فإن التعريفات الغائية لعلم الكلام لدى المسلمين ، كلها تتجه إلى أنه «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية ، بإيراد الحجج ودفع الشبه» كما قرر ذلك «الإيجى» فى كتابه «المواقف»[١] . والناظر المدقق فى التعريف ، يتضح له أن الغاية من هذا العلم مزدوجة الهدف ، حيث إن توطيد أركان الإيمان وتوابعها فى قلوب المؤمنين بإيضاح ذلك بالأدلة ، حتى يتخلص المؤمن من التقليد ، يعتبر أحد الهدفين لهذ العلم، وأما الهدف الآخر ، فهو دحض شبهات المخالفين المعاندين، تلك التى تشكل حائلاً بينهم وبين الإيمان الصحيح .

ولايمكن لهذا العلم أن يتجاوز هذه الغاية ، وإلا فقد ضرورة وجوده ، والقرآن الكريم حافل بالآيات الكثيرة ، التى تنطوى على أدلة عقلية ظاهرة ، فى بيان تهافت مواقف الخصوم ، وعدم ثباتها أمام البراهين الواضحة ، وهذه الآيات فى مجموعها تشكل الأساس لهذا الهدف الثانى من أهداف علم الكلام .

١ ـ ص ٣٢ ، ج١ ، ط. القاهرة ، ١٩٠٧ م . وقد عرفه ابن خلدون بأه «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذهب السلف أهل السنة . انظر المقدمة ، ص ١٠٣٥ ، ط. القاهرة ، ١٩٦٠م .

أما الذى يستطيع أن يتجاوزه هذا العلم ، فهو ـ فى نظرى ـ الصيغ التى يمكن أن تصور بها الأدلة ، والمادة التى تؤخذ منها تلك الصيغ والشكل الذى تظهر به الشبه التى يتمسك بها الخصم داحضة ، وفى هذا مراعاة لمقام الخطاب ومقتضي الحال ، حتى يكون ذلك أدعى فى تأثير هذا العلم ورسالته ، وفى حسن أدائه للدور المنوط به ، والهدف الذى يسعى إلى تحقيقه ، ولعل هذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» . (سورة النحل : ١٢٥) . ولن يكون الكلام من قبيل الحكمة ، مالم يكن صائباً والم يشعر معه المخاطب ـ فى حالته السوية ـ بأنه ذو تأثير قوى على عقله ووجدانه ، بحيث لايترك مجالاً لمجاوزته ، وهو أحد تعريف «الحكمة» ولن يكون الجدال أحسن ، مالم يكن الخطاب فى مستوى المخاطبين وثقافتهم التى تشكل عقولهم ووجدانهم ، ومخاطبة الناس على قدر مايطيقون من حقائق المنهج الإسلامى الأصيل ، والمراد بالطاقة هنا ، مايرتبط بمكوناتهم الثقافية ، ومايكون فى مستوى تمثلهم لما يقال .

إذا كان الأمر هكذا ، فهل يمكن أن نستخدم فى حياتنا المعاصرة نفس الطريقة التى كان عليها أسلافنا حين كانوا يواجهون واقعهم بطريقة يقتضيها زمانهم ؟ ولنضرب لذلك مثلاً : هل يمكن أن نردد نفس الأدلة التى قالها المتكلمون فى إثبات الصانع بإثبات حدوث العالم ، انطلاقا من ظاهرة التغير البادية فى عناصر الكون ؟

إن الأدلة التى ساقها المتكلمون هنا عليها اعتراضات تفقدها قيمتها

الاستدلالية ، أو على أقل تقدير نزل بها عن أن تكون موصلة إلى اليقين ، وهو أمر مطلوب فى بناء العقائد ، وقد تنبه إلى هذا المعنى «ابن رشد» فى كتابه (مناهج الأدلة)[١] لذا فإنى أرى أن الوقوف عند الذى انتهى إليه أئمتنا ، من حيث طريقة الاستدلال ، والمواد التى تشتق منها ، غير كافية فى يوم الناس هذا .

لقد قام دليل المتكلمين فى حدوث العالم ، كمقدمة لإثبات وجود الله ، على أساس بطلان التسلسل ، حتى تنتهى سلسلة الموجودات إلى نقطة ابتدأت منها من حيث الماضى ، وهذا أساس معترض عليه من داخل علم الكلام نفسه ، لأن عدم التسلسل ينبغى أن يطبق فى الماضى والمستقبل على السواء ، ولما كانوا لاينكرون التسلسل فى الآثار من جهة المستقبل ، تمشياً مع ظاهرة الشرع ، الذى قرر الامتداد الأبدى للحياة فى صورة أخرى . وهى الحياة الأعلى والأبقى (الحياة الآخرة) تحقيقاً لخلود أهل الجنة فى النعيم المقيم ، وأهل النار فى العذاب ، فإن هذا يجعل التسلسل غير مطرد التطبيق ، إذ كيف يكون باطلاً من جهة الماضى ، ولايكون باطلاً من جهة المستقبل ، اللهم إلا على رأى من ينكر الخلود ويرى فناء الخلدين أو سكونهما كالجهم[٢] والعلاف[٣] ، وهذا مالم يوافق عليه جمهور المتكلمين .

وأتصور أن واقعنا يجعلنا نتجاوز تلك الطرق والأساليب . والاستعانة بما قرره العلم فى هذه القضية وغيرها ، بعد أن أستطاع علماء اليوم إثبات عمر الكون

١ ـ ص ١٣٥ ، ط . القاهرة ، ١٩٦٤ م .
٢ ـ الشهرستانى : الملل والنحل ، ج١ ، ص٨٧ ، ط. بيروت ، ١٩٨٠ م .
٣ ـ نفس المصدر ، ص٥١ .

بطريقة علمية ، ويمكن أن يقاس على هذا ، مايمكن أن يسعف به العلم من معطياته ، مما يؤكد عناصر العقيدة الكبرى، وبخاصة عقيدة «وجود الله» (الموجود) (الواحد) بعد أن أمكن للعالم التجريبى الصحيح كذلك أن يثبتها ، وأن يظهر مدى الخرافة التى كانت تسيطر على أذهان من يقول بإنكار الوجود الإلهى . وإذا كان الأمر هكذا فى تلك القضية ، التى تعتبر أساس «الدين» فإن الباحث لن يقصر فى توظيف الحقائق العلمية فى خدمة الهدف من علم الكلام ، بطريقة تلائم الواقع ، وتنهض بالمهمة التى نهض بها هذا العلم فى مراحلة وأدواره المختلفة، إن لم تكن أجدى وأنفع ، وبهذا الذى أقول : ستظل رسالة العلم باقية ، مابقى على ظهر الأرض إنسان ذو قلب وعقل ، أولهما للإيمان أو الكفر ، والثانى للعلم أو الجهل ، وبين استنارة القلب بالإيمان ، واستفاضة العقل بالعلم تلازم واضح ، والعكس صحيح ، وهنا يتأكد لكل ذى عقل صريح غير متعصب أن العلم صنو الإيمان ، والجهل صنو الكفر ، ولقد بيّن هذه الحقيقة ، القرآن الكريم حين استعرض بعض الظواهر الكونية ثم عقب عليها بقوله : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» . (فاطر : ٢٨) . ليدلنا على أن العلم بحقائق الكون ، إنما يحمل صاحبه على اليقين ، الذى تكون الخشية لله سبحانه وتعالى أكبر دليل عليه .

بناء على ماتقدم ، أرى أن الاستمساك بلطرق القديمة التى تصاغ بها الأدلة على إثبات العقائد الصحيحة وكشف ضلالات الخصورم ، إنما يكون إعراضاً عن الهدف الحقيقى لرسالة علم الكلام ، وهو فى نفس الوقت إعراض عن

التوجيه الكريم ، الذى توحى به آية النحل الت ذكرناها آنفا .

وينبغى أن نذكر هنا أن هذا العلم قد أدى دوره فى الماضى ، حتى مع الأخذ فى الاعتبار ببعض المآخذ التى لوحظت عليه من قبل أصحاب القلوب الرقيقة ، الذين كانوا يخشون على العقيدة من الإيغال فى تحليل عناصرها بالطرق الكلامية ، وقد تجلى هذا الاداء بشكل واضح وملحوظ حين واجه الفكر الإسلامى الأفكار الشاذة ، التى أريد لها أن تنال من عقائد الإسلام ، والتى شكلت تيارات لتعكير صفو هذا الدين ونقائه . وإذا رجعنا إلي ماكتبه «الخياط» فى (الانتصار) و «الباقلانى» فى (التمهيد) و (الرازى) فى (أساس التقديس) وغير هؤلاء كالغزالى فى فضائح الباطنية وابن تيمية فى منهاج السنة النبوية ، وبغية المرتاد ، لرأينا كيف كانت مهمة هذا العلم حية نابضة ، تسعى إلى الحفاظ على حقائق الدين ضد خصومه ، سواء أكانوا من داخل الأمة الإسلامية أم من خارجها ، بل إننا لانبالغ إذا قلنا : إن البيئة الإسلامية حين وسعت فى إطارها أفكارا جديدة ـ فلسفية ودينية ـ ذات صبغة تتفاوت قربا وبعدا من الإسلام ، كان ذلك إيذاناً بأن يتسلح المسلمون بما عندهم من ثقافة ، حتى يعرفوا مابه يستطيعون إثبات عقائدهم عند المواجهة بينها وبين العقائد الاخرى ، وقد كان ذلك واضحاً لدى المعتزلة ، وبخاصة لدى «العلاف» وتلميذه «النظام» ، حيث تخللت المباحث العلمية «الفيزيقية» المباحث الدينية ، فالحديث عن الجوهر والعرض والحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، والخلاء والملاء والعناصر والأجسام ، كلها مباحث من صميم العلوم الطبيعية ، ولكنهم عرفوا كيف

يطوعونها ويوظفونها لخدمة العقيدة ، وجاءت مباحثهم فيها على غاية من الدقة والإحكام ، وهنا يظهر لنا أن الإيغال فى الدراسة على هذا الشكل ، كانت فرضه ضرورة دينية ، ولم يكن هذا ترفاً عقلياً ، كما قيل عنهم ذلك[1] . وما كان لهم أن يعفو أنفسهم من هذا المنهج بعد أن وجدوا أمامهم تلك الأسباب التى حركت دواعيهم . ومع تقديرنا لهذا لصنيع منهم ، إلا أننا نلاحظ عليهم أن أمور العقيدة صارت بهذا الشكل نوعا من الفلسفة النظرية ، التى كادت تضيع معها القضايا التى تعرضت لها بالدراسة والبحث ، ويبدو أن هذا ماتمليه طبيعة المواجهة الفكرية لنمطية من الثقافة مختلفى المصدر والهـدف ، وهذا ما يخفف كثيراً من الحكم على المعتزلة .

وإذا صحت تجربة توظيف الحقائق العلمية فى خدمة العقيدة فى دراستنا اليوم لأصولها ، كما صحت من قبل لدى أسلافنا ، فإن نتائج ذلك سيرضى عنها الحق تبارك وتعالى ، كما ستقرها أرواح اشتاقت كثيراً إلى تطوير علم الكلام الإسلامى ، ومن بين هذه الأرواح ، روح العالم الصادق المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ، لقد دعا إلى هذه الفكرة فى تقديمه لكتاب «الإرشاد إلى قواطع الأدلة» للإمام الجوينى[2] ، وهاهى محاولتـى المتواضعة لتأكيـدها وإخراجهـا إلى

١ ـ انظر : مقدمة الدكتور محمد عبدالهادى أبوريدة لكتاب : مذهب الذرة عند المسلمين لـ «بينيس» ، صفحة ج .

٢ ـ صفحة ق من المقدمة ، ط. القاهرة ، ١٩٥٠م ، وقد جاء فى كتاب الاقتصاد للغزالى مانصه : «إن الأدلة التى نحررها فى هذا العلم تجرى مجرى الأدوية التى يعالج بها المرضى ، والطبيب المستعمل لها ، إن لم يكن حاذقاً ثاقب العقل رصين الرأى ، كان مايفسده بدوائه أكثر مما يصلحه» . ص ٧ ، ٨ ط. القاهرة ، بدون تاريخ .

عالم الوجود ، فإن أصبت فى ذلك ، فليس إلا لله وحده الفضل فى توفيقى إلى ما أريد ، وإن كانت الأخرى ، فهى منى وحدى ، وحسبى أنى اجتهدت ، ولا أبتغى من وراء هذا الجهد إلا شرف المقصد وسمو الغاية ، ومن قبل ومن بعد ، رضوان الحق سبحانه وتعالى .

والآن سأقف مع بعض القضايا التى وقف عندها علم الكلام التقليدى لأبرز الصورة الجديدة البديلة ، التى يمكن أن تلبى حاجة العصر كما أشرت إلى ذلك .

القضية الأولى : حدوث العالم

المتكلمون من الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية وغيرهم من أرباب الفرق الأخرى ، يرون أن العالم حادث ، وهم ينتهون إلى هذه النتيجة بعد أن أقاموا على هذه القضية أدلة ، بعضها من النقل والآخر من العقل ، فأما الأدلة النقلية ، فظاهر الآيات التى تفيد أن الحق تبارك وتعالى «خلق كل شئ» وأنه «خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام» ومفهوم الخلق عندهم هو «الإيجاد من عدم» وهذا ماعليه جمهور المفسرين لمعنى «الخلق»[(١)] ، وهذا المعنى الذى انتهى إليه المتكلمون مع جمهور المفسرين ، إنما هو اللائق فى حق المولى جل وعلا ، كما صرح بذلك القرآن الكريم «هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شئ عليم» . (الحديد : ٣) . فغاية التوحيد هو التفرد أزلا وأبدا كماهو صريح

١ ـ انظر تفسير الآية الأولى من سورة الأنعام لدى : ابن عطية ، ج٥ ، ص١٢٠ ، ط.قطر ، ١٩٨٣ م . والرازى تفسير ، ج٦ ، ص٧٥ ، ط بيروت ، ١٩٨٥ م .

الآية ، ولأن القول بالخلق من عدم يؤدى إلى بيان قدرته وعلمه إرادته وحكمته سبحانه وتعالى ، إذ يظهر من هذه العملية تأثيره بالإيجاد لهذا العالم ، ووجوده فى وقت معين وعلى حالة معينة إنما يدل على إرداته سبحانه ، ويلزم من ذلك أن يكون وجوده بعلمه ولحكمه يعلمها ، لأنه يتنزه عن العبث فى أفعاله التى تصدر عنه ، وقد قال تعالى : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ...» (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

غير أن المتكلمين لم يقفوا عند مايدل عليه ظاهر آيات «الخلق» بل دعموا هذا المعنى بأدلة نظرية ، واعتبروا ذلك مقدمة لإثبات وجود الحق سبحانه وتعالى ـ كما أشرت إلى ذلك . واعتمدوا فى استدلالهم على حدوث العالم بتقسيمه إلى أجسام وأعراض ، وأن الأعراض لاتقوم بذاتها ، بل بالأجسام ، وأنها لاتنفك عن الحوادث ، ولم نر فرقا بيمن ماقدمه المعتزلة فى هذا المقام ، وما ساقه الأشاعرة ، لأن أساس الاستدلال واحد ، يقول القاضى عبدالجبار مصورا طريقة المعتزلة فى المسألة : «وتحرير هذه الأدلة هو أن نقول : إن الأجسام لم تنفك عن الحوادث ، ولم تتقدمها ، ومالم يخل من المحدث يتقدمه يكون محدثاً مثله» .[1]

وتقوم هذه الدلالة على أربع دعاوى هى :

١ ـ أن فى الأجسام معانٍ هى : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون .

٢ ـ أن هذه الماعنى محدثة .

١ ـ شرح الأصول الخمسة ، ص ٩٥ ، ط . القاهرة ، ١٩٦٥ م . وانظر أيضاً : الباقلانى : التمهيد ، ص ٢٢ ، ط . بيروت ١٩٥٧ م .

٣ ـ أن الجسم لم ينفك عنها ، ولم يتقدمها .

٤ ـ أنها إذا لم ينفك الجسم عنها ولم يتقدمها وجب حدوثه مثلها ، لأن ما لا ينفك عن الحوادث يكون حادثاً كذلك .[١]

وبناء هذا الدليل على هذا الشكل لايكفى للتسليم به ، وبكونه برهانا تصح به الدعوى ، بل لابد من إثبات الأكوان الأربعة ، وهى : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون . والرد على من ينكرها أو يقول بقدمها ، وهذا مافعله المتكلمون فى هذا المقام[٢] .

ونلحظ ضمنا أن فى إثبات «الحدوث» للعالم ردا على كل اتجاه يخالف ذلك ، فقد ذهب الماديون من الفلاسفة القدماء إلى أزليته ، كما قرر ذلك أرسطو أيضا مع إقراره بالمحرك الأول ، وتجلى هذا بشكل واضح لدى الأفلاطونية المحدثة التى رأت أن العالم أزلى كذلك ، ثدر عن «الواحد» «الأول» بطريق الفيض ، كدلالة على خيريته وكماله ، وقد تابعهم فى هذا ، بعض الفلاسفة الإسلاميين ، وعلى رأسهم : الفارابى وابن سينا ، مع تخريجهم للقضية على قاعدة القدم الزمانى للعالم والحدوث الذاتى له. [٣]

كما نلحظ كذلك أن فكرة «الحدوث» للأجسام مبنية على أعتبار أن الجسم ينقسم إلى جواهر تنتهى فى عددها إلى جواهر لايقبل «الانقسام» «الجوهر الفرد»

---

١ ـ شرح الأصول الخمسة ، ص ٩٩ .
٢ ـ انظر : شرح الأصول الخمسة ، ص ٩٦ ، والتمهيد ، ص ١٩ .
٣ ـ انظر : د. محمد البهى ، الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى ، ص ٤١٤ ، ٤٧٠ .

وهذه الفكرة لم تسلم من النقد قديما وحديثاً ، فقد ذهب «النظام» إلى أن انقسام الجوهر الفرد إلى أجزاء ، أمر ممكن، ولو كان ذلك فى التصور الذهنى ، ولاشك فى أن هذا النقد يوهن من قوة هذا الاستدلال ، كما أن العلم الحديث أثبت أن الذرة ليست هى نهاية المطاف فى تقسيم المادة ، بل هناك الجزئ الذرى وانقساماته[1] وكذلك : المقدمة الثانية لدليل حدوث العالم ، وهى «كل متغير حادث» عليها اعتراضات من قبل الفلاسفة القائلين بقدم الحركة ، وبالتالى بقدم العالم ، فمع الإقرار بأن العالم متحرك إلا أنهم يتمسكون بأن حركته قديمة ، ولما كان الأمر كذلك فليس وجود الحركة دليلاً على حدوث التحرك .

دليل الإمكان :

قال به «الجوينى» من الأشعرية ، وتصويره أن العالم بكل عناصره يمكن أن يوجد على حاله مختلفة عماهو عليه الآن ، وفى هذا إثبات لمطلق الإرادة والقدرة ... إلخ .

ولما كان الأمر هكذا ، فإن مايحمله العالم فى ذاته من إمكانية التصرف فيه يدل على المتصرف ، وهو الله سبحانه وتعالى[2] . وعند التحليل لهذا الدليل نجده لايخرج فى مضمونه عن دليل الحدوث . وإن كان أبعد عن الطريق السهل الواضح من الدليل الأول .

---

١ ـ انظر : د. محمود قاسم ، مقدمة . مناهج الأدلة ، لابن رشد ص ١٢ .
٢ ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة ، ص١٧ ، وانظر ك نقد المرحوم الدكتور محمود قاسم لأدلة المتكلمين فى مقدمته لكتاب الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ، ص١٢ ط. القاهرة ، ١٩٦٤ م .

ماذا قال العلم الحديث فى إثبات حدوث العالم ؟ :

تقدم علم الجيولوجيا فى هذا المضمار تقدماً ملحوظاً ، حيث أصبح قياس عمر الكون بواسطة العلاقات الإشعاعية أمرا معروفاً ، ويشتخدم فى الوقت الحاضر عددا من الطرق التجريبية لتقدير عمر الأرض ، بدرجات متفاوتة من الدقة ، غير أنها متقاربة ، وكل البحوث تشير نتائجها إلى أن الكون قد نشأ منذ خمسة بلايين سنة تقريباً ، ومن ثم لايمكن أن يكون أزلياً ، ويقرر العلم تأييد هذه النتيجة بأنه لو كان الكون أزليا ، لما بقيت أيه عناصر إشعاعية ، وهذه النتيجة تتفق مع القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية .[1] وليست النتائج التقريبية هنا التى توصل إليها العلم بقادحة فى الدليل ، لأنها مجمعة على أن الكون موجود بعدعدم ، ومن غير مادة سبقت لأن قياساتهم تنصب على قياس العناصر المادية للكون . وفى هذا رد علمى على مزاعم الماديين عموما ، الذين قالوا بقدم المادة . كما جاء عجز العلم عن تعليل لظواهر والوقائع ، وهى حاصلة بالفعل ، إفساحاً لمكانة الدين ، كى تعلل فى ضوئه هذه الوقائع ، وهذا من جانب ، دحض لمزاعم من يدعى أن الكون يخضع لآلية ميكانيكية . كما يفيد هذا من جانب آخر فى الرد على الفلاسفة المؤمنين ـ بدرجات متفاوتة فى هذا الايمان ـ الذين ذهبوا إلى قدم مادة العالم ، باعتباره معلولاً لعلة قديمة تامة التأثير ،كاملة الفعل والايجاد ، وكان أرسطو على رأس من قال بقدم مادة العالم ، غير أنه أثبـت مع ذلك وجود «المحرك الأول» وهذا مايفـرق بينه وبين الماديين ،

---

١ ـ انظر : الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٨٥ ، ط . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

وإن كان محركه هذا لايغنى عن الإله الحق شيئاً ، لأنه ليس له سلطان على الكون ، وليس له من عمل سوى تحريك العالم الحركة الأولى ، وهو لا يعلم عنه شيئاً ، لأن علمه ينبغى أن يكون فى مستوى ذاته .. الخ . أما الأفلاطونية المحدثة فقد صدر العالم فى تصورها منذ الأزل عن «الواحد» بطريق الفيض ، وقد كانت هذه النظرية ملهمة لجمهور الفلاسفة الإسلاميين ، وبخاصة الفارابى وابن سينا ، وكان عملهم الفلسفى محاولة لإيجاد علاقة انسجام وتوافق بينهما وبين الدين .

أما عن كيفية إثبات النتائج التى وصل إليها العلم ، فلا تعنينا فى شئ ، بقدر ماتعنينا النتائج نفسها ، التى انتهى إليها العلم فى هذا المقام ، وليس لأحد أن يقول : كيف استطاعت البحوث أن تصل إلى هذه النتائج ، إذ أن هذا السؤال إما أن ينطوى على إنكار للحقائق التى انتهى إليها العلم ، وهو إنكار غير مستساغ ، لأنه لادليل عليه ، وإما أن يراد به ما هو ظاهر منه ، وهو معرفة الكيفية التى أدت إلى هذه النتائج ، وعلى السائل أن يتوجه بسؤاله إلى أهل الاختصاص ، فلديهم المعطيات التى انتهت بهم إلى ما انتهوا إليه ، ولكن الذى ينبغى أن نؤكد عليه هنا ، هو أن الإنكار لما توصل إليه العلم هنا غير مقبول من الناحية العقلية ، ذلكم لأن الإنكار حكم بالنفى ، والحكم لابد أن يقوم على التصور الكامل للمحكوم عليه . ولما كان غير المشتغلين بالعلوم التجريبية ـ والمقصود بها هنا علوم الجيولوجيا ـ غير متصورين لنتائج هذا العلم ، فليس من حقهم حينئذ أن يحكموا على نتائجه بالنفى ، لأن الأمر هنا أمر بحث علمى ، له سند من التجربة بالطرق التى يعرفها العلم بعد اطراده وتقدمه ، وعدم علمنا

بخصائص التجارب التى يجريها الباحثون ، كل فى نطاق تخصصه ، لايعنى أنها غير صحيحة ، ومن النتائج الهامة التى انتهى العلم الحديث إليها ، مما يدعم فكرة حدوث العالم ، وبالضرورة وجود الإلة الأعظم ، مبدأ النظام الكونى ، وينص هذا المبدأ على أن جميع العمليات الجيولوجية والكيميائية التى تعمل الآن بانتظام ، لم يتغير نمط سيرها عن ذى قبل ، وهذا يعنى أن الكون يخضع لقوانين تحكمه فى صيرورته نحو غايته ، ولايعقل أن تكون تلك القوانين راجعة إلى الطبيعة نفسها ، لأن هذه فى حاجة إلى تفسير مقبول ، ومن ثم ثيثبت أن المقنن لها ، هو خالق هذا الكون ، وهذا يتفق تماماً مع ماتحدثت عنه الكتب السماوية من أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أبدع هذا العالم ، وهو الذى يملكه ويحفظه .[(١)]

وهذا الذى انتهى إليه العلم فى هذا المقام ، مما لاسبيل إلى إدراكه إلا بالتجربة يستدعى إلى الذهن موقف حجة الإسلام «الغزالى» فى رده على «جالينوس» الذى قال بقدم العالم وأزليته مدعيا أمن كوكب الشمس لم يزل كذلك ، وأنه لم يحدث له نقص يدل على صيرورته نحو الانحلال ، وقد جاء الرد من الغزالى ليدل على أن العالم ليس أزلياً أبدياً . وقد حصر «جالينوس» فساد «الشمس» فى ظاهرة «الذبول» ومعناه : أن يفقد هذا الكوكب فعاليته شيئاً فشيئاً ، حتى يأتى عليه وقت يصير فيه معدوماً ، كواحد من بقية الكواكب السيارة

١ ـ نفس المصدر ، وصاحب هذا البحث هو : دونالد روبرت كار» أستاذ الكيمياء الجيولوجية ، اختصاصى فى تقدير الاعمار الجيولوجية بإستخدام الإشعاعات الطبيعية ، وهو مسيحى ، ويظهر أن قوله بأن الأديان قد أقرت هذه القضية إنما كان حكما عاما .

التى تشكل هذا الكون العظيم ، ولاشك فى أن إثبات قدم أحدها ـ كما يزعم من قال بذلك ـ يعنى قدم بقية الكواكب ، لأنها متماثلة والعكس صحيح . فرد عليه الغزالى قائلاً : «لو سلمنا هذا ، وهو أنه لافساد إلا بالذبول ، فمن أين عرف أنه لايعتريها الذبول ؟ أما التفاته إلى الأرصاد فمحال ، لأنها لاتعرف مقاديرها إلا بالتقريب ، والشمس التى يقال : إنهاا كالأرض مائة وسبعين مرة أو مايقرب منه ، لو نقص منها مقدار جبال مثلا ، فكان لايتبين للحس ، فلعلها فى الذبول وإلى الآن قد نقص مقدار جبال أو أكثر ، والحس لايقدر على أن يدرك ذلك» [١] .

والشاهد فيما ذكرته من نص الإمام الغزالى ، هو أن المعول عليه هنا هو التجربة ، من أهل الاختصاص ، أما التمادى فى الاحتمالات النظرية ، فإنه يقلل من رسالة العلم بالمعنى الصحيح .

ويفهم من تأكيد العلم على حدوث الكون ، وأن وراءه محدثا ، رد مزاعم القائلين بالمصادفة فى الوجود الكونى ، لأنه قول غير علمى ، ونسبه وجود شئ واحد بها ضئيلة جداً ، فما بالنا بملايين المخلوقات التى يزخر بها هذا الكون ، هذا فضلاً عن النظام الذى يحكمه والغاية التى يسعى إليها . [٢] وقد أشار

١ ـ تهافت الفلاسفة ، ص ١٢٦ ، ط القاهرة ، ١٩٨٠ م وقد علق الدكتور سليمان دنيا على ذلك بقوله : «هذا رأى المتقدمين ، أما العلم الحديث فقد أثبت أنها أكبر من ذلك بكثير ، ولو أن فضيلته كان قد أطلع على إنجازات العلم فى هذا المقام لحدد لنا العلاقة الصحيحة بين الشمس والأرض من حيث الجرم .

٢ ـ وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ٧٤ ، ط . بيروت ، ١٩٨٥ م وأيضاً : فرانكالن ، نشأة العالم هل هى مصادفة أو قصد ؟ ضمن كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٥ ، والحقيقة أن العلم هنا قد تضافرت النتائج فيه على هذه المسألة ، ويمكن الرجوع إلى ماكتبه : سوليفان فى كتابه=

القرآن الكريم إلى تهافت هذه الفكرة فيما ساقه من افتراضات فى الخلق ، فقال سبحانه : «أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والارض بل لايوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين» . (الطور : ٣٤ ـ ٣٨) ليبين لنا أن هذه الافتراضات كلها باطلة ، بحيث لم يبق إلا القول بأن الحق سبحانه وتعالى هو الموجد لجميع المخلوقات .

القضيـة الثانية : وجود الله

هذه القضية أخصب قضايا علم الكلام ، لأنها تشكل خط الدفاع القوى ضد الإلحاد ، وتقيم الموازين العقلية الصحيحة على دحض التعطيل والدهرية ، ويشارك علم الكلام فى هذه المهمة «الفلسفة» المؤمنة ، مع الفارق الواضح بين طبيعة منهج المتكلم ومنهج الفيلسوف ،. إذا القضية لدى الأول إنما التقى فيها الوحى مع معطيات العقل ، من وجوب الإيمان بها ، ومن ثم الدفاع عنها ، وأما لدى الثانى ، فقد جاءت نتيجة البحث المطلق فى طبيعة الوجود ، ومن ثم فإن العقل الفلسفى من شأنه أن يبرر الوجود الإلهى بما يقدم ممن أدلة على ذلك ، بعد أن أنتهى إلى ضرورة وجوده كنتيجة لثنائية الوجود . وسنرى أولاً كيف عالجها القرآن الكريم .

= حدود العلم ، وكريسى موريسون فى كتابه : الإنسان لايقوم وحده المترجمة تحت عنوان : العلم يدعو للإيمان ، وموريس بوكاى فى كتابه : الكتب المقدسة فى ضوء المعارف العلمية الحديثة . وسنشير إليها فى حديثنا عن القضية الثانية .

أدلـــة الكتاب العزيز :

ولقد كان للوحى الإلهى ـ القرآن الكريم ـ منطقه الواضح فى هذه القضية ، وجميع الأدلة التى قدمها فى هذا السبيل ، إنما كانت تحدياً عقلياً لكل الوثنيات بأشكالها المتعددة ، وقد صاغ أدلته من عالمين واضحين ، هما العالم المادى بكل آفاته المنظورة ، القريب منها والبعيد ، وعالم «النفس» الذى يشكل كيان الإنسان الداخلى ، باعتباره محل الاستدلال وموضوعه والمحتاج إليه ـ فى نفس الوقت ـ كضمان لسلامة عقيدته ، وإدراك العلاقة الصحيحة بينه وبين الوجود الأكبر ، وهذه الصورة من الاستدلال قد اختصرها القرآن فى قوله تعالى « «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد» . (فصلت : ٥٣) . وهى موزعة فى القرآن الكريم فى حديثه عن عناصر الكون المختلفة ، وماتمثله للإنسان من ضرورة يحتاج إليها فى وجوده . على اعتبار أنه الكائن المخاطب بالقرآن أولاً . وهى فى نفس الوقت تمثل أدلة وشواهد على وجود خالق الكون ومبدعه . إن تفرد القرآن الكريم من حيث المنهج الذى عالج به هذه القضية وغيرها ، إنما يتجلى فى سوقه للآيات الدالة على وجوده ـ فى القضية التى معنا ـ والتى تكون فى نفس الوقت مظهرا وتجليات لصفاته الكمالية والجلالية ، التى يبين منها علاقة «الخالق» «الموجد» الذى ساق هذه الشواهد والآيات كدلالة على وجوده وفاعليته من جهة ، بمن سيقت له هذه الآيات من جهة أخرى . وفى هذا كله ينبئ الناظر المتأمل فى هذه الدلائل ، بالقيمة العليا الفريدة فى منهج الاستدلال القرآنى ، وسأختار هنا بعض

الآيات التى يمكن أن تكون مثالاً لغيرها من الآيات ، والتى يظهر منها كذلك أنها لم تأت فى شكل منطقى جاف ، كما هو الحال فى طرق الاستدلال العقلية ، بل جاءت مليئة بكل مايغذى ملكات الإنسان المستدل بها ، لأنها مست جميع منافذ الشعور لديه . يقول الله تعالى : «ومن آياته الليـــل والنهار والشمس والقمر ...» . (فصلت : ٣٧) ويقول جل شأنه : «ومن اياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ..» (فصلت : ٣٩) ويقول :وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون» .. (يس : ٣٣ ـ ٣٥) ويقول جلا وعلا : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هو مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون» .. (يس ٣٧ ـ ٤١). والصور القرآنية التى تغذى هذا المنهج الفريد ، كثيرة ومتنوعة ، وهى فى عمومها وشمولها تجسد حقيقة العطاء الإلهى للإنسان ، وهذا شئ يدركه إدراكاً مباشراً ، ولا يستطيع ـ مهما علا تجبر وظن أنه شئ ـ أن ينكر هذه الحقيقة ، وإلا كان عليه أن يثبت بالطريقة الصحيحة المصدر الآخر لهذا العطاء ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى على سبيل التحدى ، فى سياق من السبر والتقسيم . فى قوله تعالى : «أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والارض بل لايوقنون . أم عندهم

خزائن ربك أم هم المسيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين» . (الطور : ٣٥ ـ ٣٨) ، وقوله عز من قائل : «نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ماتمنون ، أأنتم تخلقونه أن نحن الخالقون» .. (الواقعة : ٥٧ ـ ٥٩) ، «أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون» . (الواقعة : ٦٣ ـ ٦٥) ، وتمضى الصورة القرآنية مستعرضة آثار الموجود الأعلى التى وهبها للإنسان من ماء تشرب منه الأنفس والأنعام والزروع ، والنار ذات الدفء والحرارة إلى غير ذلك من أنواع العطاء الربانى ، قريبة ـ كالذى رأينا ـ وبعيدة كالواكب والافلاك والمجرات وكلها مسخرة لخدمة الإنسان ، على اعتبار أنه المخلوق المكرم ، والذى يمثل الخلافة عن الحق سبحانه وتعالى فى الأرض .

ونلاحظ أن سوق هذه الآيات فى معرض الدلالة على الانتفاع من جهة. وكونها شاهدة على خالقها ومبدعها من جهة أخرى ، يكون أشد تأثيراً فى النفس والشعور من أى منهج آخر من مناهج الاستدلال ، كما أشرت إلى ذلك آنفا ، وهنا يظهر الفارق بين طريقة القرآن الكريم فى الاستدلال على وجود الله وبين الطرق التى نظمها العقل الإنسانى فى هذا السبيل .

ويبين من هذا ـ أيضا ـ أن تركيز القرآن الكريم على عالمى «الآفاق» و «الأنفس» بما ساقه من آيات فى هذا المقام ، إنما هو دعوة صريحة إلى استكناه أسرار الخالق فيما خلق ، وفى ذلك يتجلى التوجيه الإلهى للمعرفة كضرورة لهذه الدعوة . من ثم كان فى هذا المنهج دعوة صادقة إلى تعميق الإيمان ، بقدر ما

كان فيه من توجيه كريم لتطوير الحياة وترقيها ، ولعل فى هذا مايبرز لنا أن المعارف العلمية التى تتجه لدراسة العلوم الكونية والنفسية ، يمكن أن تكون مدخلا حقيقياً للإيمان ، متى تحددت أهدافها ومنطلقاتها ، لأن الكشف عن القوانين التى تحكم عالم الظواهر أو عالم النفوس ليست إلا نوعاً من إماطة للثام عن سنة إلهية تتغلغل فى صميم هذين العالمين ، وستكون هذه المسألة أكثر وضوحاً عند حديثنا عن معطيــات العلم وماقدمه من أدلة فى قضيتنا .

الأدلــة الإنسانية علي وجود الله :

تعمدت أن أضع عنوان هذا المبحث بهذا الشكل ، ولم أعدل عنه إلى التعبير بالأدلة العقلية ، لأن الأدلة التى جرت العادة بأن نطلق عليها : الأدلة النقلية ، إنما هى فى الواقع أدلة عقلية كذلك ، وإن كان قد جاء بها النص الشرعى ، ويظهر أن الذين أطلقوا عليها هذ الأسم «النقلية» أرادوا أن يميزوا بين مصادر الاستدلال فقط ، إن كانت الهية أو بشرية . وإذا كنا فى حديثنا عن حدوث العالم لدى المتكلمين قد بينا أنهم جعلوا ذلك مدخلاً لإثبات وجود الله ، فإن ماسقناه سلفا يكفى فى قضيتنا ، حتى لانكرر ماسبق ، ونبين الآن الأدلة التى ساقها الفلاسفة المؤمنون بوجوده تعالى ، وسنختار أظهرها حتى لايطول البحث .

أدلـــة أفلاطون :

صاغ أفلاطون ـ أخذا من أساتذة سقراط غالباً ـ ثلاثة أدلة على وجود الله ، أولها : يعنى إثبات وجود الله كعلة فاعلة ، وكلامه هنا لايتجاوز المبدأ العام

المعروف «مبدأ السببية» يقول فى ذلك : «إن كل ماينشأ ، يكون ضرورة بفعل علة ، لأنه من المستحيل أن شيئاً أيا كان ينشأ بدون علة . وثانيها : يهتم بإثبات وجوده كعلة محركة ، ويطلق على الإله هنا «نفس العالم» وإذا كان بحكم كونه علة سابقا على المعلول ، فبالضرورة يكون هو الذى حرك العالم من العدم إلى الوجود ، وثالثها : يثبت وجود الله كعلة غائبة ، ويقوم هذا الدليل على بيان أن كل فعل من أفعال الطبيعة لابد أن يصدر عن غاية ، ويستحيل أن يكون هذا الصدور عبثاً .»[١]

ويلاحظ أن الاستدلال هنا ينحو منحى ميتافيزيقيا ، لأن مبحث العلة الذى قام عليه الاستدلال ، إنما يدخل فى إطار مابعد الطبيعة ، وهذا يعنى أنه استدلال من نوع خاص ، يغذى جانبا واحدا من جوانب الطاقة الإنسانية ، وهو الجانب العقلى ، ويظهر أن هذا سيكون سمة المنهج الاستدلالى على القضية التى معنا لدى الفلاسفة ، ونكتفى بأفلاطون من الفلاسفة القدماء ، لأن مباحثه الإلهية كانت أقرب إلى الأديان السماوية ـ وبخاصة هنا ـ من تلميذه أرسطو .

أدلة وجود الله فى الفلسفة الإسلامية :

١ ـ الفـارابى :

الفارابى مؤسس المدرسة الفلسفية الإسلامية المتأثرة بالمنطق الأرسطى ، مع كثير من الميل إلى الأفلاطونية المحدثة ، وقد استخدم فى استدلاله على وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وكمالاته ، الطريق الذهنى المنطقى المغرق فى التجريد

١ ـ د. محمد غلاب : مشكلة الألوهية ، ص٤ ، ط . القاهة ، ١٩٤٧ م .

، ويظهر أنه اعتقد ـ شأنه في ذلك شأن كثير من الفلاسفة قبله وبعده ـ أن أهم خصائص التفكير الفلسفي أن يظل محتفظاً لنفسه بما يعده عن عالم الحس والواقع ، الذى يعد مجالا للعلم لا للفلسفة . من ثم رأينا دليله الذى قدمه هنا على وجود واجب الوجود . إنما يعتمد على النظر إلى طبيعة الوجود ، من حيث هو حقيقة ذهنية . يقول فى ذلك : «لك أن تلحظ عالم الخلق فترى عليه أمارات الصنعة ، ولك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض ، وتعلم أنه لابد له من موجود بالذات ، وتعلم كيف ينبغى أن يكون عله الموجود بالذات ، فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد ، وإن اعتبرت عالم الوجود المحض فأنت نازل ، تعرف بالنزول أن ليس هذا ذاك ، وتعرف بالصعود أن هذا غير هذا» .(١)

ولايفوت الفارابى ـ كفيلسوف مسلم ـ أن يركن إلى بعض الآيات القرآنية التى تؤيد طريقته فى الاستدلال ، فيذكر فى هذا المقام قوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد» . (فصلت : ٥٣) ليستخلص منها روح هذا الدليل ، حيث إن المتأمل فى صدر الآية يرى أنها تقر الاستدلال على وجود الحق سبحانه وتعالى بالآيات التى بثها فى عالمى الآفاق والنفس ، وهذا هو الاستدلال الصاعد على حد تعبيره ، أو الاستدلال بالأثر على المؤثر ، ويظهر أن هذه هى الطريقة لتى انتهجها المتكلمون فى استدلاتهم ، ثم تبين أن عجز الآية إنما يدل على الطريقة الثانية ـ الاستدلال النازل ـ وهو الذى يقوم على النظر فى طبيعة الوجود المجـرد ،

١ ـ فصوص الحكم ، ص١٢٩ .

فيلحظ منه الوجود الذاتى ، الخاص بالوجود الإلهى ، والإمكان الذاتى أو الوجوب بالغير ، وهو الخاص بما سوى الحق سبحانه وتعالى ، وهذه الطريقة هى آثر الطريقتين لديه .

٢ ـ ابـــن سينـــا :

ليس لدى «ابن سينا» ماهو جديد فى هذا الباب ، اللهم إلا فى تحليلاته البارعة لطريقة الاستدلال ، إذ يعتمد على طبيعة الوجود دون النظر إلى سواه ، فيقول : «تأمل كيف لم يحتج بيانا لثبوت الأول ووحدانيته وبراءته من المسمات إلى تأمل الغير نفس الوجود ، ولم يحتج إلى أعتبار من خلفه وفعله ، وإن كان ذلك دليلاً عليه ، لكن هذا الباب أوثق وأشرف ، أى إذا اعتبرنا حال الوجود ، فيشهد به الوجود من حيث هو وجود ، وهو يشهد بعد ذلك على سائر مابعده فى الوجود»[1] . ويسوق هنا الآية الكريمة التى ساقها الفارابى من قبل ، ويرى أن عجزها ، إنما هو حكم للصديقين الذين يستشهدون به لاعليه .

ويمكن أن نلاحظ على دليل الفيلسوفين ، أنه لايتأتى إلا فى دائرة المؤمنين الذين وقر فى قلوبهم الإيمان بوجود الله تعالى ، حتى يمكن أن يكون ذلك شاهدا على غيره ، والآية الكريمة التى انطلقوا منها لتأكيد طريقتهم ، إنما ركزت على الطريقة الأولى فى مواجهة من لا يؤمن بالله أو الغافلين عن ذلك ، لتكون الآيات شاهدة على خالقها ـ دلالة الآثار ـ ومتى وصل الإنسان إلى هذه الحالة فحسبه بعد ذلك أن يكـون الخالـق دليلا على المخلوق ، بمعنى أعمـق من

١ ـ الإشارات والتنبيهات ، ج١ ، ص٢١٤ ، نمط : الوجود وعلله .

الطريقة الأولى ، وإذا صح هذا تكون طريقتهم تحمل من تحصيل الحاصل الشئ الكثير ، ذلكم لأننا فى مقام الاستدلال على وجود الله ، والطريقة الصحيحة فى الاستدلال على المستدل عليه هى التى تكون خارجة عن ذاته . وقد نسلم بصحة طريقتهم فى الاستدلال إذا استصحبنا أن الوجوب والإمكان من الأمور المتضايفة ، وهم يركزون تماماً على الجانب الذهنى ، ويلزم من وجود أحد طرفى الوجود وجود الطرف الآخر ، غير أن استنادهم على الآية الكريمة قد يعكر على طريقتهم هذه ، لأنها تتحدث عن الوجود الواقعى ، المتدرج ، الذى يصل بالمستدل إلى الوجود المطلق ، ومتى وصل المستدل إلى هذه الحالة فمن السهل ـ حينئذ ـ أن يكون هذا الوجود المطلق دليلاً على الوجود الواقعى .، إذن الواقعية منطلق استدلال الآية ومنتهاها .

وقد كان بوسعنا أن نذكر آخرين من فلاسفة الإسلام ، ولكن حسبنا ماذكر ، حتى لايطول البحث .

أدلة وجود الله فى الفكر المسيحى الوسيط والحديث :

١ ـ القديس أنسلم :

يعد البرهان الذى قدمه «أنسلم» فى هذا المقام أصلا لبعض الفلاسفة الذين أتوا بعده ، فى استدلالهم على وجود الله ، ويعتمد على فكرة الإلوهية كصورة ذهنية يشترك فيها المؤمن والملحد على السواء ، والخلاف بينهما إنما ينصب على الوجود والتحقق خارج الذهن ، فبينما يرى المؤمن صحة وجود الإله خارج الذهن ، ويقيم على ذلك الدليل ،، يرى الملحد أنه لايلزم من وجوده فى الذهن

وجوده الخارجى ، إذ ليس كل متصور متحققا فى الخارج . إن فكرة «الألوهية» إذن متصورة ذهنا ، وإذا كان الأمر هكذا ، فيمكن أن يقال : الإله هو المدرك الذى لايتصور العقل أعظم منه ، وهذا يعنى أنه جامع لكل صفات الخير والكمال ، التى لايمكن أن يدانيه فيها كائن متصور آخر ، ويلزم من هذا أن يكون وجوده ذهنياً وواقعياً معا ، لأننا لو وقفنا به عندالصورة الذهنية فحسب ، كنا متناقضين مع أنفسنا ، لأن العقل بإمكانه أن يتصور موجودا آخر يساويه فى الوجود الذهنى ، ويمتاز عنه بالوجود الخارجى ، وقد تقرر أنه أعظم المعقولات . وإذن فمقتضى تصور الإله على أنه أعظم مدركات الذهن يقتضى وجوده الخارجى الواقعى ، لأن الوصف «الأعظم» لايتم إلا بهذا الوجود ، ويمكن أن يصاغ الدليل فى شكل منطقى فيقال : الإله الحقيقى هو الحائز لجميع الكمالات ، والوجود الواقعى الحقيقى كمال ، إذن فالإله حائز للوجود الحقيقى ، وبهذا يكون الإله هو الموجود الأوحد ، يلزم تعريفه وجوده ويتناقص جحود وجوده مع مجرد تصور حقيقته .[١]

٢ ـ ديكارت وليبينتز :

لقد استلهم «ديكارت» دليل «أنسلم» السابق ، وبنى عليه استدلاله على وجود الله ، وقرر فى التأملات الوحدة التامة بين الماهية والوجود بالنسبة للإله ، وإذا كان هذا التلازم أمر ضرورياً فإن تصور الذهن للإله ، إنما يعنى بالضرورة كذلك أنه موجود فى الواقع خارج الذهن .[٢]

---

١ ـ د. محمد غلاب : مشكلة الألوهية ، ص ٧٣ .
٢ ـ التأملات : ترجمة د. عثمان أمين ، ص ١٤٢ ، ط . القاهرة ١٩٤٦ م .

أما «ليبينتز» فلم يضـــف إلى هذا الدليل سيئاً أكثـــر من بيانه أن الفكرة التصــورية للإله ينبغــى أن تكون خاليـــة من أى تناقض ، يعنى بذلك : أن فكـــرة الإلوهية من حيـــث هى عمليـــة ذهنية إذا كانت أمـــرا ممكنا فى ذاته ، فإنهـــا والحالة هذه تكـــون قابلـــة للتحـــقق الخارجـــى إذا قـــام الدليـــل عليها .[١]

ولقد كان هذا الدليل هدفا لبعض الانتقادات القوية التى وجهت إليه من بعض المفكرين اللاهوتيين وغير اللاهوتيين ، من أمثال «جونيلون» و «دنس سكوت» ثم «جاسندى» و «كانت» وهى انتقادات اختلفت بحسب رؤية كل واحد من هؤلاء ، لعل أظهرها أن التلازم بين تصور الإله ووجوده الواقعى ليس صحيحاً ، فليس كل شئ متصورا ينبغى أن يكون موجودا ، كما أن الوجود ليس هو كل كمالات الشئ حتى يكون أقوى المبررات التى تعبر عليها فكرة الوجود الحقيقى من الوجود التصورى . أما «كانت» فقد قرر أن المبدأ «الأخلاقى» هو الذى يمكن أن يبرر الوجود الإلهى تبريرا قويا .[٢]

والحقيقة أن الساحة هنا ـ وبخاصة فى العصر الحديث والحياة المعاصرة فى الفكر الغربى ـ مليئة بالأفكار والمذاهب التى تترواح فيها التصورات عن الإله وعن وجوده ، مما يجعل الدارس لها ، يعود بشئ من التوزع الذهنى والنفس والقلبى إلا من عصمه الله ، وحسبنا أن نستعرض الموضوعات التى أشتمل عليها أحد الكتب المعاصرة التى عالجت هذا الموضوع ، وأعنـــى به كتـــاب «الله

١ ـ د. محمد غلاب : مشكلة الألوهية ، ص ٧٠ .
٢ ـ نفس المرجع ، ص ٧٧ .

فى الفلسفة الحديثة» لمؤلفه «جيمس كولينز»[١] لنرى مدى الصراع حول هذه القضية ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أن الأدلة التى ساقها كل فريق على رأيه الذى ذهب إليه ـ إيجابا أو سلبا ـ لاتعدو أن تكون ـ فى أغلبها ـ وجهات نظر ، ولم تكن أدلة بالمعنى العلمى . ويظهر أن هذا من طبيعة الدراسات النظرية ، من ثم أقول : إن لم يحسم القضية موضوعية تنشأ عن تجربة واقعية ، يكون الحياد إطارا لها ، فستظل الموضوعات الميتافيزيقية ذات منازع متباينة ، لأن هذا طبيعتها ، لذا كان الاقتراب من المنهج العلمى فى القضية التى معنا أمرا أكثر حسما لها ، وهذا ما سنبينه .

ماذا قال العم التجريبى فى إثبات وجود الله ؟

عفت الدراسات العلمية الرصينة التى ظهرت مؤخرا ، فى بلاد الغرب ، على تلك الموجة التى ظهرت فى القرن الماضى ، رافعة راية الإلحاد باسم العلم ، والتى تولى كبرها «جوليان هكسلى» عندما أخرج كتابه الشهير «الإنسان يقوم وحده» وأحسب أن هذه الدراسات إنما تمثل المنهج العلمى الصحيح فى كل العصور ، ذلك الذى لايقف عند منتصف الطريق ، فيزعم أن القوانين التى تحكم عالم

١ ـ أستاذ الفلسفة بجامعة «سانت لويس» و «هارفارد» ترجمة إلى العربية : فؤاد كامل ، ونشر بلقاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ، ١٩٧٣ م ، وسأختار بعض العناوين الأكثر إثارة من غيرها ، ومنها : اقترابات جديدة من الله عن طريق الإيمان والعقل ـ هجوم مذهب الشك على معرفة الإله ـ المذهب التجريبى وتحييد الإله ـ عصر التنوير ساحة قتال حول الإله ـ ظهور الإلحاد ـ الإله منظور ومتناهيا ـ نحو فلسفة واقعية عن الله .. ومن هذه العناوين ترى أن هذه النزعات الشكية أو الإلحاد ، إنما كان مردها إلى أن العقل فى استدلالاته وفى تجاربه لم يكن مخلصا للحقيقة العلمية ، بقدر ماكانت تحكمه نزعات استعلائية متمردة . وكان القرن التاسع عشر قمة هذا التمرد ، حتى وسم بأنه عصر الإلحاد . أما الاقتراب من الروح العلمية فقد كان دعما للإيمان ، كما أكدته البحوث العلمية المعاصرة التى نجتزئ بعض أدلتها فى موضوعنا .

الظواهر ليست إلا روابط ميكانيكية لمادة الكون ، كماهو الحال لدى العلماء والماديين لقد سخر بهؤلاء الماديين الأفذاذ من أساطين العلم واعتبروا مقولتهم عن الطبيعة التى تملك قانونها الداخلى قولا بغير علم ، لأن الطبيعة نفسها فى حاجة إلى تفسير[1] فكيف تكون من الظهور بحيث تعلل بها الظواهر ؟

والحق أن معارضة الدين قد انبثقت من ثلاث دوائر ، دائرة العلوم التجريبية ، التى أشرنا إليها ودائرة الدراسات النفسية ، وقد كان لبحوث «فرويد» و «ماكدوجل» وأمثالهما الأثر الواضح فى هذا السبيل ، أما الدائرة الثالثة فقد ظهرت من خلال الدراسات الاجتماعية . وقد كان لبحوث «أوجست كومت» و «دوركايم» دورها فى تأكيد رفض الدين كحقيقة خارجية مستقلة عن الإنسان . والمدقق لما جاء على لسان الباحثين فى المجالين الأخيرين ، يلاحظ أن ماانتهو إليه ليس إلا آراء خاصة ، تمثل وجهة نظر أصحابها عن الدين . وأما ما تذرع به العلماء التجريبيون من القول بأن العلم قد فسر ماكان يفسر بالأمس باسم «الإله» فلم يكن إلا من قبيل التهريج باسم العلم ، وسنحصر اهتمامنا فى هذا المجال حتى نبين أن العلم بالمعنى الصحيح يقول بخلاف ماذهب إليه هؤلاء .

ولن أستطيع أن أقدم هنا كل إنجازات العلم التى تعد فتحا فى عالم الروح ، يزيد عن كونها فتحا فى عالم المادة ، فذلك مما لايطيقه المقام ، لذا سأختار بعض النماذج من النتائج العلمية التى توصل إليها الباحثون ، فى العلوم التجريبية ، وسأحاول أن تكون متنوعة ، بحيث تتعدد موضوعاتها الجزئية ، وإن كانت جميعاً تدور حول مباحث تجريبية قوامها العالم المادى المشاهد .

---

١ ـ قارن : وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، ص ٣٢ و «فرانك آلن» : نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ، ص٤ من كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم .

أولاً: في مجال العلوم الفيزيائية والبيولوجية:

بطلان القول بالتفسير الميكانيكى للكون: انتهت البحوث العلمية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر إلى أكتشاف قانون التعليل ، الذى يحكم حركة الكون ، وكان لـ«نيوتن» الفضل الأكبر فى تدعيم هذا القانون ، وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئاً بذلك يناقض الدين ، بل قال عبارة تدل على تمسكه بالقول بوجود إله يحكم هذا الكون ، هو الذى وراء هذا القانون ، حيث صرح بأن الله يجرى مشيئته فى الكون بواسطة أسباب وعلل ، إلا أن الملحد قد فهموا من اكتشاف هذا القانون فهما يتمشى تماما مع موقفهم الإلحادى ، حيث فسروه بأنه يعنى : خضوع الظواهر الكونية كلها لهذا القانون ، ومن ثم لاحاجة إذن إلى القول بوجود إله ، لأن الكون يفسر فى ضوء هذه الميكانيكية الذاتية دون تدخل خارجي .

وباطراد البحوث العلمية فى هذا القرن (العشرين) تبين أن موقف أولئك كانت تمليه اعتقادات ليست صحيحة ، هى التى أوحت إليهم بهذا التفسير ، حيث ظهرت حقائق جديدة تبطل التفسير الميكانيكى للكون ، فلم يستطيع قانون التعليل أن يفسر كثيرا من الظواهر ، من ذلك مثلا : أن الرديوم عنصر مشع ، وأليكتروناته تتحول إلى حطام تلقائياً بفعل الطبيعة ، ولم يعرف السبب الحقيقى لهذه الظاهرة على الرغم من أن العلماء قد أجروا كثيرا من التجارب حتى يصلوا إلى نتيجة .فلم يستطيعوا ، ومن ذلك أيضا : المغناطيس ولماذا يجذب نحوه الحديد ، وقد انتهت أبحاثهم فى هذا المجال إلا لا شئ ، حتى نطق بعضهم

قائلاً : ربما لأن الله أصدر إلى المغناطيس أوامره بذلك[1] . وسواء أكانت هذه العبارة تعبيرا عن حيرة قد أدت بقائلها إلى أن يدرك جانبا آخر كتفسير للظاهرة ، أم كانت سخرية عابثة نتيجة الإخفاق لإيجاد تعليل مقبول لها بعد السعى الدءوب ، فإن الواقع الذى انتهى إليه العلماء الأثبات أن قانون التعليل لم يعد مقبولا لتفسير الظواهر الكونية ، وأن القول بالمصادفة كذلك يخفق فى هذا السبيل ، وإذا كان هذا شأن البحث العلمى المتقدم ، الذى لم يكترث لابقانون التعليل ولا بالقول بالمصادفة ، فماذا عساه أن يقول ؟

إن الوجهة الجديدة للعلم التجريبى قد أبانت عن معنى لابد من إثباته ، وهو أن هذا العلم يتعامل مع الكون المادى المحسوس ، ومن ثم فإن الوقوف عند النتائج التى ينتهى إليها دون استنباط حقائق أخرى غير مرئية ، هى من لوازم هذه العلوم ، يجعل الصورة غير كاملة ، يقول البروفيسور «مانديز» : «إن حقائق الكون لاتدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر ؟ هناك وسيلة هى : الاستنباط أو التعليل ، وكلاهما طريق فكرى . وكيف يصح الاستنباط المنطقى لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن إن نسمى هذه العملية حقيقة علمية ؟ والجواب : أن الكون كله ، مايحس منه ومالايحس ، تجمعه سلسلة من الروابط ، وإذا كان الأمر هكذا فإن النظر إلى بعض أجزائه معزولة عن الأخرى يفقده خصائصه ، ولنضرب مثلاً لذلك : إذا تكررت عملية سقوط الأجسام من أعلا إلى أسفل ، وهى عملية مشاهدة محسوسة ، فلابد أن

١ ـ وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ، ص ٢٤ ط. القاهرة ، ١٩٧٤ .

تكون هذه الظاهرة راجعة لشئ غير محسوس . فلو أننا صرفنا النظر عن هذا اللامرئى الذى يمكن أن تفسر به هذه الوقائع ـ وهو قانون الجاذبية ـ لكنا قاصرين فى نظرتنا ، إذن النظر الدقيق إلى الوقائع الجزئية المتكررة يولد فينا إحساسا قويا بأن هناك علة ينبغى أن يستنطها العقل ، تفسر فى ضوئها ، وإذا انتهينا إلى هذه النقطة فإن العلم يكون قد اكتشف الطريق الصحيح ،لأن الروبط التى تحكم عالم الظواهر ، وهى القوانين العلمية ، إنما تفصح عن واضع لها عن طريق الاستنباط والاستنتاج ، والقول بخلاف ذلك لايقبل عقلا ، لأن وجود ظاهرة بلا علة أمر مرفوض ، وتعليلها بالتفسير الميكانيكى أو المصاد فى أمر مرفوض كذلك (١) .

إن هذه الحقيقة التى انتهى إليها العلم هنا قد عبر عنها البروفيسور «سيسيل بايس هامان» أستاذ أمريكى فى علم البيولوجيا بقوله : «كانت العملية المدهشة فى صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل إلى الإله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيماوياً ، فهل أبطل هذا الكشف وجود الإله ؟ كلا ، وإلا فما هى القوة التى أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيدا ؟ إن الغذاء بعد دخوله الجسم الإنسانى يمر بمراحل كثيرة خلال نظام دقيق ، ومن المستحيل أن يوجد هذا النظام المدهش باتفاق محض ، لذا صارحتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن أن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة» . (٢)

١ ـ وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، ص ٤٨ .
٢ ـ نفس المصدر ، ص ٣٢ .

خطا العلم ـ إذن ـ تلك الخطوات الجبارة التى باعدت بينه وبين الخرافة ، التى تجلت فى القول بالمصادفة العمياء أو قانون التعليل الذاتى للمادة ، واعترف أساطينه بالحقائق المستنبطة التى تنشأ بسبب عجز العلم عن التعليل الصحيح للظواهر . وهذا المنعطف الصحيح فى منهج البحث لدى المشتغلين بالعلوم الطبيعية يجعلنا نؤكد أن هذه العلوم متى أخذت سبيلها إلى غايتها ، دون تعصب أو تحيز ، فإنها ستكون دعما للإيمان وسندا قوياً له ، وهنا يتبدل موقفها الرافض إلى الموقف المقابل ، المؤيد للدين والمدعم له .

وفى ثنايا هذا الانعطاف نحو المنهج الصحيح بأن لنا أن كثيراً مما يظن أنه نظريات علمية لم تكن إلا عقائد خاصة لدى القائلين بها ، ومنها على سبيل المثال نظرية التطور والارتقاء ، ذات الصلة الوثيقة بهذا المبحث ، وهذا ما قاله الأثبات من الباحثين فى العلوم التجريبية[١] .

قانون الطاقة المتاحة أو ضابط التغير :

إن أكتشاف هذا القانون ، يمكن فى ضوئه أن يتأكد الكلام النظرى الذى قال به المتكلمون ، عندما قرروا حدوث العالم ، كمقدمة لإثبات الصانع ، كما يمكن أن تتأكد فى ضوئه أيضاً ، تلك الإشارات القرآنية الواضحة ، فى قضية الخلق ، كدلالة على الخالق ، ولا اقصد بذلك أنه لو لم يكن هذا القانون قد اكتشف ، لكان القرآن مخاطباً لنا بكلام غير مؤكد ، وإنما الذى أريد أن أقوله ، أن القرآن الكريم فيه إشارات يمكن أن تكون موضوعا لكثير من الدراسات

١ ـ وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، ص ٤٩ .

العلمية والعملية ، فإذا كانت نتائج هذه الدراسات متوافقة مع تلكم الإشارات ، كان ذلك تفسيراً عمليا لما دل عليه القرآن . وهذا ما يحرص عليه هذا البحث ، ويرى ضرورة الاستعانة بمنجزات العلم التجريبى فى فهم الآيات الكونية ، حتى يكون ذلك أدعى إلى اوعى بأسرار القرآن ، وليكون ـ كذلك ـ فهما له بمنطق العلم ، وينبغى أن أشير هنا إلى مسألة يتخوف منها كثير من الغيورين على القرآن الكريم ، وأعنى بها : كيف يفهم القرآن الكريم فى ضوء المفاهيم العلمية المتغيرة ؟ وأبادر فأقول : إذا كانت النتائج التى يصل إليها العلم قد بلغت منم الوثاقة واليقين مبلغ الحقيقة العلمية ، فإنها لاتعدو أن تكون سنة إلهية ، كشف عنها العلم ، وإن كانت دون ذلك ، كانت تفسيراً مؤقتاً لايمكن أن يكون حجة على القرآن الكريم .

أما القانون الذى معنا فيعنى : أن حرارة العناصر الكونية تنتقل دائماً من وجود حرارى إلى عدم حرارى والعكس غير صحيح ، وبناء على هذا الكشف ، فإن عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوماً بعد يوم ، حتى يأتى عليه وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لاتبقى طاقة تفيد بقاء الحياة .

وهذه النتيجة تثبت أمورا من صميم العقيدة هى :

١ ـ نفى أزلية هذه الحياة [العالم] .

٢ ـ نفى أبديتهـــا .

٣ ـ وجود خالق لهذه الحياة ومعدم لها ، وهى أم العقائد .

وينبغي أن أشير هنا إلى أن العلماء قد أكدوا على قضية هامة ، هي أن هذه النتائج كانت أمرا غير مقصود لدى الباحثين[١] ، حتى لايقال إنها جاءت نتيجة معتقدات سابقة ، وكأنهم يقصدون من هذا التأكيد أن الحياد العلمي وحده كاف في الوصول ـ بطريقة طبيعية تلقائية ـ إليها ، وفي هذا دحض للتفسيرات الخاطئة التي جاءت في الطرف المقابل ـ إنكار وجود الله ـ تلك التي انتهى إليها أصحابها في ضوء معتقدات سابقة ، تطوع نتائج العلم لها ، فكانت على حساب الحقيقة العلمية والدينية على السواء .

ثانياً : في مجال العلوم الفلكية :

ربما كان هذا المجال أوسع المجالات وأدقها في الدلالة على وجود الله ، لأنه اعتمد كثيراً على الدراسات الرياضية وآلات الرصد الدقيقة التي استطاعت قياس الأبعاد والمسافات بين الكواكب السيارة التي تشكل في مجموعها هذا الكون الهائل العجيب ، وكانت النتائج الباهرة التي انتهت إليها الدراسة في هذا المجال آخذة بكل مجامع العقول والقلوب والنفوس . ثم من جانب آخر : يعتمد الفلكي على بديهة العقل الرياضية ، بينما لايعتمد العلماء في المجالات الأخرى إلا على ماتفيده التجربة الواقعية المشاهدة .

ومن المعلوم أن دور الاستنتاج العقلي لما وراء التجارب المعملية ، مسألة لايمكن إنكارها أو أغفالها . ثم إن الكون كله في نظر العالم الفلكي الرياضي ،

١ ـ انظر إلى ماقاله العالم الأمريكي (ادوارد لوثر كيسيل) في بحثه الممتاز : «فلننظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيز» ضمن كتاب : الله يتجلى في عصر العلم ، ص ٢٦ .

يتراءئ في نسيج من النسب الرياضية ، التي جعلتنا نقبل قول الأقدمين من الفلكيين : «إن الله يهندس ، وإن الهندسة تترجم لنا حكمة الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته ، سواء منها مايتصــل بالعالم العلوى أو ما له علاقة بالعالم الأرضى .

وقد أثبت علم الفلك ـ حتى الآن وفى حدود إمكانياته ـ أن الكوكب الوحيد من بين الكواكب السيارة ، الذى يزخر بالحياة والاحياء هو كوكب الأرض ، وأن أقرب الكواكب إليه هما : القمر والشمس ، وأن هناك تناسباً عجيباً ودقيقاً بين حجم وكتلة كل واحد من هذه الثلاثة ، وبين أبعادها ، وأن وضع كل واحد منها بالنسبة للآخر ثابت لايتغير من حيث المسافات بسبب مابينها من تجاذب ، وهذه الأوضاع يمكن أن يطلق عليها «عجلــة التوازن العجيبة» . إن الكرة الأرضية تدور حول محورها مرة واحدة فى كل أربع وعشرين ساعة ، بمعدل يقرب من ألف ميل فى الساعة ، وكونها هكذا فى مقابلة كوكب الشمس يحدث عنه ظاهرة تعاقب الليل والنهار ، فلو تصورنا أن سرعتها كانت أقل من ذلك بأن كانت مائة ميل فقط ، فإن ذلك يعنى : أن كلا من النهار والليل سيطول بمقدار عشرة أضعاف ، وهنا تحدث الكوارث التى لاتبقى معها الحياة ، حيث تحترق الكائنات نهاراً من طول حرارة الشمس ، وتتجمد ليلاً من قلة حرارتها ، إن بقى لها أو لبعضها وجود ، ومايقال بالنسبة لانتظام دوران الأرض حــول نفسها بسرعة محدودة فى مواجهة كوكب الشمس ، يقال كذلك حين نتصور تخلخلا فى دورانها حول الشمس ، فعلماء الفلك أثبتوا أيضاً أنها تدور بمعدل ثمانية

عشر ميلاً فى الثانية ، ولو اختل معدل هذا الدوران بالزيادة أو بالنقص فإن المصير سيكون فناء الكائنات الحية ، أما بأحتراقها فى حالة نقص المعدل المعروف ، وإما بتجمدها فى حالة زيادة هذا المعدل ، ونفس النتيجة عندما يتخلخل البعد بين هذين الكوكبين ، بأن تصير الشمس أبعد عن الأرض مما هى عليه الآن أو أقرب من ذلك .(١)

ثم إن هناك ـ بجانب ماذكرنا ـ ظاهرة فلكية تستوجب النظر والاعتبار ، خاصة بكوكب الأرض ذاته ، بالنسبة لمحورها الذى تدور حوله ، إنها مائلة بزاوية قدرها ثلاثة وعشرون درجة ، وقد كشف العلم أنها لو لم تكن كذلك ، لكان قطباها فى حالة غسق دائم ، كما أن بخار الماء الذى يخرج من المحيطات والانهار سوف يكون فى حالة بحيث يشكل قارات من الجليد ، تتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح ، وكان ثقل الكتلة التى شكلها ، يمكن أن يضغط على قطبى الأرض ، فيؤدى ذلك إلى فرطحة خط الأستواء ، وقد يقلل ذلك من هطول المطر على كافة أنحاء العالم ، ولو حدث هذا فسيكون منذرا بالدمار الشامل .

ثم أن كوكب القمر يعد عن الأرض مسافة : مائتين وأربعين ألف ميل .. ولو نقصت هذه المسافة إلى خمسين ألف مثلاً ، لكان المد الذى يحدث نتيجة

١ ـ انظر : كريسى موريسون : العلم يدعو للإيمان . ومن أشهر الفلكيين الذين شلوا أنفسهم بهذا الميدان «السير جيمس جينز» وله كتاب مشهور جدا عنوانه : سالنجوم فى مسالكها» نقله إلى العربية الدكتور أحمد عبدالسلام الكردانى ، فليرجع إليه ففيه مباحث دقيقة ، ودلالات صادقة على خالق هذا الكون .

جاذبية هذا الكوكب ، بالغا من القوة بحيث يغمر الأرض كلها مرتين فى اليوم الواحد ، ولكانت قوة الدفع هذه قادرة على إزاحةالجبال العملاقة مع كبرها وثقلها ، ولنا أن نتصور ـ كما أثبت البحث ـ أن الكرة الأرضية كلها ستكون مغطاة بقدر هائل من المياه ، يبلغ عمقها نحو ميل ونصف ، ولو تم ذلك فلن تكون هناك حياه إلا على سبيل الاحتمال فقط فى أعماق المحيطات السحيقة(١) .

إذا كان الذى ذكرنا ، يعد بيانا لذلك التوزان العجيب بين ثلاثة كواكب فقط ، فضلاً عن بقية كواكب مجموعتنا الشمسية ، وبعيداً عن المجموعات الأخرى من الكواكب التى لاينكرها العلم(٢) ، فماذا نقول بعد أن بتقدم العلم خطوات متلاحقة فى هذا المضمار ؟ هل يمكن أن يقال : إن ذلك التوازن العجيب راجع إلى محض المصادفة ؟ كلا وألف كلا بعد أن عرفنا سابقا أنها أعجز من أن تفسر فى ضوئها الظواهر الكونية ، وبعد أن أثبت العلم بالتجربة أن نسبة نجاحها فى حالة ما إذا أردنا أن نخرج عشرة أعداد ، من واحد إلى عشرة ، مرتبة بطريقة صحيحة من حقيبة مثلاً هى بنسبة واحد إلى عشرة بلايين.(٣) فما بالنا

١ ـ نفس المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٢ ـ انظر : د. الغمرواى ، الإسلام فى عصر العلم ، ص ٢٢٤ ، ط . القاهرة ، ١٩٧٣ م . حيث بين أن علم الفلك الحديث أثبت أن هناك عوالم مجرية أخرى غير عالمنا ، لابالمئات ولا بالألوف ولكن بالملايين ، وهذا يفسر قوله تعالى : «الحمد لله رب العالمين» حيث إن لفظ «العالمين» جمع تكسير ، لاينبغى أن يطلق فحسب على أجناس عالمنا وأنواعه من إنسان ونبات وحيوان ، أو الملائكة والجن ، بل يفيد أن المدلول عليه بهذا اللفظ أوسع من ذلك بكثير ، وهذا ما أثبته علم الفلك فى يوم الناس هذا .

٣ ـ العلم يدعو للإيمان ، ص ٥١ وانظر أيضاً : نشأة العالم هل مصادفة أو قصد ، فرانك ألن ، ضمن كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٩ ، ١٠ . حيث ساق حديث العالم الرياضى السويسرى «تشارلز يوجين جاى» عن حظ المصادفة فى تكوين جزئ بروتينى واحد ، وكذلك ماقاله العالم الإنجليزى «ج . ب ليثز» عن حظها فى نجاح تآلف الذرات فى أحد الجزيئات البسيطة ، وقد أشرت إلى مثل هذا من قبل

إذا كانت الاعداد المتزاحمة أكثر من هذا ؟ ثم من جانب آخر : هل يمكن أن تفسر هذه الظواهر فى ضوء قانون التعليل بعد أن ثبت فشله ، وتبين أنه كان مقولة لبعض العلماء ، ولم يكن مقولة العلم ذاته ؟ إن المشكلة فى البحث العلمى الذى يعنى بدراسة عالم الكون والفساد ، مشكلة الباحثين ، حين يصدرون فى بحوثهم الموضوعية ـ وهذه طبيعة البحث فى العلوم التجريبية ـ عن مواقف سابقة من الدين ، ومن ثم من الإله ، إنهم والحالة هذه يصبغون بحوثهم بنفس الصبغة التى تنطوى عليها عقولهم ونفوسهم ، وهنا يفقد البحث العلمى ومنهجيته أخص خصائصه وهو الحياد والموضوعية ، وليس لأحد أن يقول أن هذه المواقف التى انتهى إليها بعض الباحثين المنكرين لوجود «الله» إنما تشكل عقيدة لديهم ، بالمعنى السلبى ، كما تشكل عقيدة الإيمان بوجود الله معناها الإيجابى ، وكلا النتيجتين عقيدة ، أقول : ليس لأحد أن يقول ذلك ، لأن عقيدة الإيمان قامت على موازين من العقل والفطرة السليمة ، كما أن عجز العلم عن تعليل الظواهر الكونية ـ على الوجه الذى بيناه آنفا وهى حاصلة فعلاً ـ يفسح المجال للتعليل الصحيح ، وهو الإيمان بوجود قوة قادرة وراء هذه الظواهر ، هى العلة الصحيحة لوجودها ، وعلى هذا يبقى البحث العلمى ونتائجه من حيث هو ، منهجا موضوعياً ، لايثبت ولاينفى ، ثم يأتى دور الاستنباط العقلى المشتق من وقوف العلم عند دائرة التفسير فقط دون التعليل ، ليثبت وجود الله سبحانه وتعالى وقد أشار إلى هذا المعنى ، العالم الفيزيائى المعروف «ادوين فاست» فى بحثه الذى كتبه بعنوان : «نظرة إلى ماوراء القوانين

الطبيعية» والذى انتهى فيه إلى أن جميع القوانين الطبيعية ، ليست إلا مجرد وصف لما يحدث أو مايشاهد ، ولم تكن تدبير أو إلزاماً . [١]

وإن الباحث المحايد ، ذا البصيرة النافذة ، ليعجب أشد العجب حين تطالعه الكشوف العلمية بهذه الروح التى تنطوى عليها أسرار الكون ، وإنها لتفصح عن نفسها بقدر مايبذل من سعى فى الكشف عنها ، ويوم يكون الأمر هكذا ، فسيكون الباحث أشد قربا من الله ، وخشية له ، وقد صدق الله العظيم حيث يقول : «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور» (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) ، وإنها لإشارة ذات دلالة ومغزى عميق ، أن يأتى هذا التعقيب الكريم ، لبيان حالة العلماء مع خالق الكون سبحانه ، بعد هذه الظواهر الكونية المشاهدة ، فى الماء وأثره فى الكائنات الحية كلها ، والجبال ومهمتها ، والناس والدواب والأنعام ، وتنوعاتها ، أليست هذه كلها موضوعات لكثير من العلوم والدراسات ، التى تؤهل من يعمل فى أى دائرة منها ، لأن يكون قريباً من الحق سبحانه وتعالى ، لأنه يعاين جلاله وكماله ، فى حكمته وتدبيره لمخلوقاته ، على أى مستوى ومن أى نوع ؟[٢] بلى وإنها لكذلك .

١ ـ ضمن كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٩٣ .

٢ ـ أشير هنا إلى أن المادة العلمية فى كل مجال من المجالات التى أتعرض لها ، متوفرة وغزيرة ، بل إن المجالات نفسها أوسع بكثير مما سنذكر ، من ثم فإن ما نجتزئه ليس إلا ممثلا لغيره ـ وهو كثير ـ مما انتهى إليه العلم فى مقام إثبات الألوهية .

وخير ما أختم به هذا المبحث ، آيات من كتاب الله ، تشير إلى ذلك «التوازن» الذى ينتظم مجموعتنا الشمسية ، مما نعده نحن إشارات إلى موضوعات العلوم ، تحمل فى طيها مجموعة من الدوافع الخيرة إلى اسنكناه أسرار الخالق سبحامه وتعالى فيما خلق ، ليكون ذلك أدعى إلى وثاقة الإيمان باطراد العلم ، وإلى رقى الدنيا مع عمق الدين فى النفس والمجتمع على السواء ، يقول تعالى : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون»[1] (يس : ٣٧ ـ ٤٠) ، ويقول تعالى : «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها[2] ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» . (الرعد : ٢ ، ٣) .

حقا إن العلم متى اتخذ سبيله الصحيح إلى غايته القوية سيكون فتحا جديداً فى عالح الروح ، كما اشرنا إلى ذلك آنفا ، وحينئذ يتعانق التوجيه الإلهى الراشد ، الذى جاء به وحى السماء ، مع مقتضيات البحث العلمى ، حيث يمثل القرآن الكريم سجل الكون المنثور ، كما يمثل الكون كتاب الله لمسطور ، كما تكون الصورة ممثلة أصلها تماماً فى المرآة الصقيلة ، ولله المثل الأعلى . وهنا

١ ـ وفى الآيات الكريمة إشارة إلى قانون التوزان الذى اشرنا إليه من قبل .
٢ ـ وقانون الجاذبية يفسر بالعمد اللامرئية .

يتأكد لكل ذى بصر أن جحود الجاحدين ، وإنكار المنكـرين للإله الموجود ، ليس إلا ضربا من الجهل المطبق ، الذى لايملك أصحابه أى دليل عليه ، ومعلوم أن الإنكار كالإثبات ، كلاهما يحتاج إلى دليل ، وصدق الله العظيم حين كشف عن موقف المنكرين فقال : ﴿ومن الـناس من يجـادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ . (الحج : ٣ ، ٤) .

ثالثاً : فى مجال التكاثر البشرى :

إذا كان الحديث فى المجالين السابقين خارج حقيقة الإنسان ، وما يمكن أن يوحيا به من حقائق غير ماذكرنا ، تكون سندا للإيمان بالله ودحضا للإلحاد والإنكار ، وكذا فى المجالات الأخرى ، التى يضيق البحث عن استيعابها ، فإن هذا المجال يتصل بالإنسان نفسه ،لأنه يتخذ من حقيقة وجوده وتطور هذا الوجود ، على نسق يعجز العلم عن تعليله ، دليلا جديدا على الإيمان . إن الاعجاز فى خلق الإنسان لأوضح دليل وأظهره على الوجود الإلهى ، وإذا كانت عوالم الكون فيما عداه تحمل من أسباب الدهشة مايجد العقل الراشد فيها مقنعا وبرهانا على قضية الوجود الإلهى ، أخذا من خضوع بعض أجزائه للتجربة والملاحظة والفرض العلمى ، وانتهاء إلى القانون الذى يحكم الظواهر على الوجه الذى ذكرناه آنفا ، فإن الأمر فيما يتعلق بالوجود الإنسانى ودلالته على الوجود الإلهى أعمق من ذلك بكثير ، إن الإنسان هنا سيكون هو المقدمات التى تقضى إلى نتائج ضرورية ، ويتخذ من نفسه لنفسه برهانا على صدق الوجود

الإلهى ، لأنه سيعاين داخله صورة مباشرة ، حين ينفض عن كاهله عوامل الانصراف عن تأمله لذاته ، ولقد صدق الحق سبحانه حين جعل من البشر دليلاً ضمن سلسلة الأدلة الأخرى ، فى أرضه وسمائه ، فقال سبحانه : «وفى الزرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم زفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وماتوعدون» (الذاريات : ٢٠ ـ ٢٢) . وقوله تعالى : «فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من ين الصلب والترائب» (الطارق : ٥ ـ ٧) .

والجانب الذى سنعنى به ها هنا من جوانب الحياة الإنسانية المتعددة ، هو ذلك الذى يتحدث عن مراحل تكوين الإنسان الأولى ، لأن دلالة هذه المرحلة على مانحن بصدده ربما تكون أوضح من الجوانب الأخرى ، وبخاصة حالاته الداخلية وانفعالاته وغرائزه ، إذ الحديث عن الإنسان الداخلى لايزال مشوبا بالخلط والاضطراب ، لاسيما حين يعد عن توجيه خالق الإنسان عن الإنسان ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وهذا هو السبب الذى حمل باحثا ممتازاً هو «ألكسيس كاريل» صاحب الكتاب المشهور «الإنسان ذلك المجهول» على القول بأن هناك تفاوتا عجيباً ين العلوم التى تبحث فى الجماد كالكيمياء والفيزياء ، والأخرى التى تبحث فى الاحياء ، وبخاصة الإنسان ، فينما تقوم علوم النوع الأول على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وبلغة حسابية إحصائية دقيقة . نرى علوم النوع الثانى وكأن الباحثين فيها قد ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الأشجار ، إنهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق التى يستطيعون أن يصفوها ، لكنهم يعجزون عن تعرفها أو تحديدها فى معادلات جبرية .[1]

١ ـ ص ١٥ .

إن المرحلة المشار إليها ، فيها جانب مادى ظاهر فى تكوين الإنسان ، غير أن فيها جانبا رحبا واسعا من المعنويات ، هو من لوازم الجانب الأول ، أو يمكن أن يقال : هو نتيجة هذا الجانب ، والعلاقة بين الجانبين هى التى تبرز لنا القدرة الإلهية الباهرة التى تجلت فى هذه العلاقة ، وفى الدلالة على القدرة دلالة بالأصالة على القادر ، إذ الوصف لايقوم بنفسه ، بل بذات تستحق هذا الوصف لذاتها .

إن خلق الإنسان الأول (آدم عليه السلام) فيه من الدلالة على وجود الله سبحانه وتعالى الشئ الكثير ، ووجه الدلالة على ذلك ، إنما يتجلى فى كيفية تحويل عنصرى التكوين (مادة التراب والروح) وهنا متباعدان من حيث الطبيعة ، إلى كائن تنسجم فيه الحياة على درجة كبيرة من الكفاءة والعمل وينجز العلم عن تعليل هذا التواقف والانسجام على الرغم من حصوله ووقوعه . وليس لنا أن نقف عند التفسير الخاطئ لنشأة الانسان وتطوره ، كما تذكره نظرية التطور ، بعد أن أثبت العلم أنها كانت رأيا خاصا ، وليست قانونا علميا .[1]

والفكر حين يتأمل فى القضية التى معنا ، سيجد من خروج الإنسان من طين الأرض كما جاء فى قوله تعالى : «والله أنبتكم من لأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخركم إخراجا» (نوح : ١٧ ، ١٨) ، وقوله : «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخركم تارة أخرى» (طه : ٥٥) . تلك الدلالة الواضحة على من أوجد هذه الملاءة الواضحة للحياة الإنسانية، فجميع العناصر الصالحة لحياة الإنسان ،

١ ـ انظر التعليقات التى أوردها بعض الباحثين الغربيين على هذه النظرية فى كتاب : الدين فى مواجهة العلم لمؤلفه : وحيد الدين خان ، ص ١٣ ، ط . القاهرة ، ١٩٧٤ م .

إنما ترتبط بالأرض ، منها غذاؤه وكساؤه ، واستقبالها لضوء الشمس وحرارتها يكون دفؤه وقضاء مصالحه ، ومايحيط بها من هواء ، به عنصر الأوكسيجين ، الذى به حياته .. إلخ . [١]

والعنصر الهام فى الحياة الإنسانية ، هو العنصر الروحى ، وتفسيره بالطرق التجريبية لن يتأتى ، لأن عالم الروح ليس من قبيل مايخضع لهذا النوع من الدراسة وهو جانب معقد ، لاقبل للعقل الإنسانى بأن يرجع من دراسته بمقنع ، وصدق إذ يقول : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» (الاسراء : ٨٥) . وقد استطاع العلم أن يعرف العناصر المادية التى يتكون منها جسم الإنسان ، ولكن أنى له أن يقترب من الجانب الآخر ، جانب الروح ، ولقد كان العلامة الأمريكى (كريسى موريسون) على حق فى رده الساخر على «أرنست عيكل» حين قال : «أعطينى هواء ومواد كيماوية ووقتا وأنا أصنع إنسانا» لقد علق على ذلك قائلاً : «إنه أغفل وحدات الوراثة (الجينات) وأغفل الحياة نفسها ـ الروح ـ لقد كان عليه ـ لو استطاع ـ أن يجد وينظم الذرات غير المرئية ووحدات الوراثة ويمنحها الحياة ، وحتى فى هذه الحالة كانت النتيجة بنسبة واحد إلى ملايين .. إنه كان سيأتى بوحش لامثيل له ... حقا إن الله يخلق معجزاته بطريقة تخفى على الأذهان[٢] .

وإذا كان عجز العلم أمرا ظاهرا عن تعليل الظواهر البادية فى عالم المادة ،

١ ـ موريس بوكاى : أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدسة . الترجمة العربية ، ص١٨٦ ، ط بيروت ، ١٩٩٠ م .
٢ ـ العلم يدعو للإيمان ، ص١٥٠ .

فإنه يكون أعجز حين يتعلق الأمر بعالم الروح ، وفى هذا من الدلالة على وجود المؤثر الأعظم «الله» مالا يخطئهعقل خبير ، وناقد بصير . وإن النتائج العلمية الممتازة التى انتهى إليها المعاصرون من الأثبات فى دائرة العلوم التجريبية ، ترى ضرورة انطلاق العلم من أن يحصر نفسه فى الوقائع التى يمكن تجربتها مباشرة ، وأن أيه قرينة منطقية تستند إلى مدركات غير مباشرة ، يمكنها أيضا أن تصبح حقيقة علمية ، وبنفس درجة الحقائق العلمية التى يمكن مشاهدتها مباشرة من اليقين والثبات ، ويظهر أن هذه الروح التى انتهت بالعلماء إلى هذه النتائج ، إنما كانت صياغة جديدة ـ بالطريقة العلمية ـ للعلاقة الصحيحة بين العلم والدين ، تلك التى غابت فى ظل استخدام العلم وتوظيفه لعقائد سابقة لم يقم عليها دليل ـ كما زشرنا من قبل ـ أو اتخاذه وسيلة لأغراض سياسية تعمل لصالح مؤسسات معينة[١] ، وقد يكون هذا الغياب راجعا إلى الطرف الآخر ـ الدين ـ حين يكون علما على مسمى غير صحيح ، لايحمل من الدين إلا اسمه ، كما هو الحال لدى التصورات المنحرفة للدين .

سيظل الإنسان ـ من حيث تكوينه الأول وتطور خلقه ـ من أظهر الأدلة على وجود الخالق جل وعلا ، إن لم يكن أظهرها ، وبقدر ما فى هذه القضية من وضوح الدى العالم المتدين ، نراها لدى الآخرين مظهرا من مظاهر ألوهية الإنسانية ، الذى تمـرد على فطرته وطبيعتـه فكان فى نفس الوقـت متمردا على

١ ـ انظر : الرنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب ، ص ٥٥ ، ط . القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٧٧ م لترى كيف أن أكثر أصحاب النظريات الحديثة فى العلوم المختلفة كانوا يعملون لصالح جهات معينة ، وبخاصة تلك النظريات التى تتحدث عن الإنسان .

العلم والدين على حد سواء . وهل يمكن أن تفسر دعوى مثل دعوى «جوليان هكسلى» التى قرر فيها أن «الإنسان يقوم وحده» إلا فى ضــوء هذا الغرور الكاذب ؟ لقد صدق ربنا سبحانه وتعالى حين قرر أن اكتفاء الإنسان ، الذى يحس معه أنه من تلقاء نفسه ، هو الذى يحدوه إلى الطغيان والاستكبار «كلا إن الإنسان ليطغى ، أر رآه استغنى» . (العلق : ٦ ، ٧) .

وجــه آخــر للدلالــة :

هناك وجه من وجوه دلالة خلق الإنسان على الخالق جل وعلا ، وهو يظهر فى الطريقة التى يتكاثر بها نوع الإنسان ، وليس لنا أن نتكلم فى هذا كثيرا ، فهناك دراسات علمية واسعة عن «الأجنة» وتطورها ، سواء منها ماكان مقصوراً على الناحية العلمية أم كان ممزوجاً بالتفسير الدينى لها ، وكونها من ناحية أخرى توضيحاً للإشارات التى جاءت بها الكتب المقدسة ، وبخاصة ما جاء فى القرآن الكريم [1] وأكتفى هنا بمسألة تتصل بهذه العملية ، هى أظهر ماتكون دلالة على مانحن بصدده ، وأعنى بها مسألة «النسلات» أو «الجينات» . إن القرآن الكريم قد اتخذ من خلق الإنسان فى كل أطواره دليلا على أن الخالق سبحانه وتعالى فى قمة الكمال الإلهى ، لأنه أحسن الخالقين ، قال تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قــرار مكين ، ثم خلقنــا النطفة علقة

١ ـ لعل خير من تناول هذا الموضوع بتوسع ـ فيما نعلم ـ هو الباحث الفرنسى موريس بوكاى «فى كتابه» أصل الإنسان بين العلم والكتب المقدسة» (مرجع سابق) وكتابه : «المعارف العلمية فى ضوء الكتب المقدسة» كما أن هناك كتابا آخر للدكتور محمد على البار بعنونا : خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، وفى هذا الكتاب تفسير للإشارات القرآنية عن عملية الإخصاب ، بما أثبته العلم الحديث .

فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» (المؤمنون : ١٢ ـ ١٤) . وأحسب أن الدلالة التى توحى بها الآيات لاتقف عند وجود الخالق فحسب ، بل تتعدى إلى أثبات صفات الكمال اللائقة بالذات الإلهية ، إنه خلق عن قصد وإرادة وعلم وحكمة ، ثم من ناحية أخرى يمكن أن تكون دلالة على وضع الإنسان ، مقيسا إلى ذاته أولاً ، فهو من هذه الناحية «مخلوق» وفى التعبير عن هذا الحدث باسم «المفعول» إشارة إلى كونه منفعلاً ومعلولا لعله أوجدته ، ولم يقم وحده كما قيل عنه ذلك ، والأرحب دلالة فى هذه الصورة القرآنية كونه أثرا لأحسن الخالقين ، وهذا يجعل له مكانة لاتدانيه فيها المخلوقات الأخرى ، وهذا المعنى واضح فى الإسلام ، فهو وحده المستخلف عن الله سبحانه وتعالى فى الأرض ، وهو الذى تحمل وحده أمانة التكاليف الشرعية ، وهو الذى سخر له خالقه الكون كله بكل عناصره ليتلاءم مع حياته ، فى ضوء الرسالة التى خلق لها والغاية التى وجد من أجلها ، ومن قبل ومن بعد هو الذى خلقه الحق تبارك وتعالى فى صورته الأولى بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته .

وفى تقديرى أى أى حديث عن الإنسان ، ومافى خلقه من دلالة على خالقه ، يتجاوز هذا الذى جاء به الكتاب العزيز ، يكون مردودا ، لأنه حديث الخالق عن خلقه ، وهو وحده الأعلم بقيمته ووضعه ، وجهة دلالته على مبدئه وبارئه .

أما مسألة «الناسلات» فإن العلم قد أثبت أنها تبلغ من الدقة درجة يمكن القول معها بأن جميعها ، التى يتولد منها سكان الكرة الأرضية ، فى الماضى وفى

الحاضر وفى المستقبل ، ولو وضعت فى حيز واحد لما زادت على مكان يسع أنملة الأضبع ، ومع هذا فهى فى كل طور من أطوار حياة الإنسان ، فى كل جيل وقبيل تكون حية ، وفى طواياها أسرار الخصائص التى يتصف بها جميع الآدميين ، وانه لواقع علمى لاترقى إليه الشكوك ، فكيف ـ إذن ـ تنطوى فى هذه الناسلات جميع عوامل الوارثة المتخلقة من حشود الأسلاف ، ومع كل هذا يبقى لكل فرد من أفراد الإنسان خصائصه الذاتية ومقوماته النفسية ، فى مثل هذا الحيز الصغير ، إن لم يكن ذلك عن قصد وتدبير لإله حكيم ؟ (١)

إن كل خلية من خلايا اللإنسان المخصبة ـ ذكرا كان أم أنثى ـ تحتوى على «الكروموزمت» وهى وحدات المادة العضوية ، العامـل الأساسى فى نقل الصفات الوراثية «الجينات» وهى وحدات الوراثة ، والأولى تحتوى على الثانية ، والثانية هى العامل الرئيسى الحاسم فيما يكون عليه الكائن الحى ، و«السيتوبلازم» إنما تشكل التركيبات الكيميائية التى تحيط بالاثنين ، وهذه العلاقات بين هذه العناصر يعجز العلم عن تعليلها بمعطياته ، ولكنه يرى أنها من أسباب بقاء الكائن الحى ، أما لماذا كانت كذلك فإنه طور فوق العلم ، يحسبه تالمتدينون من العلماء أثرا لإله حكيم . ويؤيد ذلك أن الجنين ، وهو آخذ فى تطوره التدريجى من النطفة «البروتوبلازم» إلى الشبه الجنسى ، إنما يقص تاريخا مسجلا ، قد حفظ وعبر عنه بالنتنظيم الذرى فى «الجينات» و «اليتوبلازم» ومن الأمور المدهشة هنا أن طبيعة الغذاء الذى تناوله الأم أثناء حملها ، لادخل له

١ ـ العلم يدعو للريمان ، ص ١٣٩ . وانظر أيضا : عباس محمود العقاد ، كتاب «الله» ، ص ٢٩٠ ، ص. المكتبة العصرية ، ببيروت ، مصورة عن ط . القاهرة ١٩٤٩ م .

في شبه الجنين ، بل إن الذى يقرر ذلك هو وحدات الوراثة «الجينات» .[١]

ولنا أن نتساءل بعد ذلك : ماقوة التوجيه هذه التى «للجينات» وما مصدرها ؟ والجواب كما يقول العلامة «كريسى موريسون» : حقا إن الله سبحانه وتعالى يحقق إرادته ويخلق مايشاء ، وكيف يشاء بطريقة تعلو فوق التصور البشرى[٢]

إن المجالات التى مرت بنا ليست إلا شبيهة بغيرها من المجالات الأخرى ، التى يمكن أن تكون مصدرا قويا للأستدلال على الخالق جل وعلا ، والمهم أن نثبت أن التقدم العلمى إذا أخذ طريقه الصحيح فلن يكون إلا سندا للإيمان وعونا له ، بطريقة غير تقليدية ، وإذا كان الإسلام يحرص أشد الحرص على أن تبنى لعقائد على أساس من اليقين ، فأعتقد أن توظيف الحقائق العمية فى هذا السبيل سيكون عاملا قويا لإحداث هذا اليقين ، كما أشرنا ، وإذا كان البحث قد اتخذ من إثبات وجود الله محورا له ، فيما رسمه لنفسه من منهج ، فأعتقد أن العقائد الأخرى يمكن أن تدرس بهذه الطريقة متى سمحت طبيعتها بذلك ، وهناك من التجارب فى هذا الميدان مايمكن أن يكون لبنات تبنى عليها اجتهادات أخرى فى تطوير علم الكلام ، وأعنى بتلك التجارب : ماقام به العلامة المسلم »وحيد الدين خان» فى كتابيه «الإسلام يتحدى» و «الدين فى مواجهة العلم» وماجاءت به البحوث العلمية الرصينة ، التى أشرنا إليها فى ثنايا هذا البحث .

١ ـ العلم يدعو للريمان ، ص١٤٠ .
٢ ـ نفس المرجع ، ص ١٥٠ .

شبهات المنكرين :

لانحسب أن المنكرين لوجود الحق سبحانه وتعالى فى كل جيل وقبيل ، بخارجين على ماقرره القرآن الكريم فى حق الدهريين ، الذى بنوا عقيدتهم على الظن ، كما جاء فى قوله تعالى : «وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» . (الجاثية : ٢٤) . من ثم لن نقف أمامهم طويلاً ، بيد أنا يمكن أن نقول : إذا كان الإنكار لم يقم عليه دليل ، فإن هذا يعنى أنه ليس إلا أمرا فى ذهن المنكر ، وليس لعاقل أن يدعى أن ما أنكره يكون معدوما ، ولو أنه اتخذ الطريقة العلمية لكان الأولى له أن يقول : لم يثبت عندى ، فلربما لم يسعفه فهمه لاستيعاب أدلة الإثبات .

ثم إن هؤلاء الذين قام إنكارهم للذات الإلهية بناء على تصورهم لطبيعة الوجود . وهى أنه لايعدو ذلك العالم المادى ، ينبغى أن يناقشوا فى الأساس الذى قام عليه إنكارهم هذا . وحسبهم فى هذا المقام أن يسألوا عقولهم التى بها أنكروا كل ماليس بمحسوس : أين هذه العقول ومن أى عالم هى ؟ أمن عالم المعنويات أم من عالم المحسوسات ؟ فإن أجابوا بالأول كانوا متناقضين مع أنفسهم ، وإن أجابوا بالثانى فأين الدليل على أن عقولهم من عالم المحسوس ، وهى مخزن الأفكار والأحكام التى منها عقيدتهم فى إنكار الألوهية ؟ ولانعتقد أن العلم التجريبى ـ فضلا عن الدين الصحيح والعقل الصريح ـ يوافق المنكرين على إنكارهم ، وذلك لسبب واحد يقربه الباحثون من علماء هذا العصر وكل عصر ، وهو أن العلم نفسه محدود الآفاق والنتائج ، فهو نسبى ، وأنى للنسبى

أن يكون إلا هكذا ، فكيف يحكم على المطلق ؟ لقد ظهرت فى هذا المقام بحوث على غاية من الوثاقة والدقة ، لعل من بينها ـ بجانب ماذكرنا ـ [١] كتاب «حدود العلم» لمؤلفه العلامة «سوليفان» والأفكار الأساسية التى تدور حولها مباحث الكتاب تثبت أن العلم التجريبى ذو إمكانيات لاينبغى أن يتجاوزها ، وهو عالم الشهادة ، بل إنه فى هذا الميدان ،لاتنكشف له الحقائق كلها ، بل يعرفها شيئاً فشيئاً ، بقدر سعى العلماء وكدهم ، وتوفر الوسائل التس تساعدهم على الوصول إلى النتائج وهى فى نفس الوقت نتائج نسبية ، مالم تصل إلى كونها حقائق كلية ، لقد استشهد بقول البروفيسور «وايت هيد» فى معرض حديثه عن تطبيق أفكار الفيزياء والكيمياء على الحياة كلها فقال : «لابد من الاعتراف بأن هذا الأسلوب قد لاقى نجاحا مرموقا ، لكن المشكلة هنا تكمن فى تفهم العمليات التى يقوم بها الجسم الحى ، إذ لايمكن أن يعالج بنفس الأسلوب الذى تعالج به الأجسام غير الحية ، ومن الواضح تماماً أن هناك عمليات معينة تقوم بها الأجسام الحية بناء على تصور سبق لغاية ما ، وتصور طريقة معينة لبلوغها وتحقيقها ، ولايمكن حل المشكلة إذا تجاهلنا فكرة «الغاية» [٢]

إن هذه المسألة قد ترددت فى الأوساط العلمية فى هذا العصر بشكل ظاهر ، حتى رأينا باحثاً مثل «اميل بوترو» [٣] ينقل كثيراً من أقوال العلماء فى هذا الصدد

١ ـ انظر كتاب : الرنسان ذلك المجهول لمؤلفه : «ألكسيس كاريل» .

٢ ـ انظر : د. عماد الدين خليل : العلم فى مواجهة المادية ، ص ١١٣ ، ط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧ م ، وهو قراءة فى كتاب «حدود العلم» لسوليفان .

٣ ـ انظر كتاب : العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة . ص٢٠٥ ، ط . القاهرة ، ١٩٧٣ ، ترجمة د. أحمد فؤاد الاهوانى .

، وهو أن ما وراء العلـم ليس عدما بحيث يكون البحث عنه أمر سلبياً ، بل ينبغى أن يفسر بأنه شئ مطلوب لابد منه كما يقول أرسطو . ولقد صدق «باسكال» حين قال : آخر خطوة للعقل أن يعترف بوجود عدد لامتناه من الامور التى تفوقه .

إن بعض الباحثين المعاصرين فى ميدان «البيولوجيا» الذين ادعو أن المادة تشتمل على خواص الحياة ، ومن ثم فإنه يمكن الاستغناء عن فرض قوة خارجية (الله) لتفسير نشأة الأحياء على الكرة الأرضية ، لم يكن كلامهم هذا إلا أمانى ، ترضى غرورهم الكاذب ، لأنهم لم يقدموا لنا الأدلة الكافية على ذلك ، ولقد كان قولهم هذا ، محل استنكار لدى كثير من الباحثين فى نفس الميدان ، لأن العلم نفسه لايمكن أن يقدم لنا جمادا نشأت فيه الحياة لذات الجماد ، أو أن يرينا مادة مخلوقة على عينة تتحول إلى حياة ، أو أن يحلل لنا خلية تلد إنساناً سويا فيصنع خليه مثلها فى مقاديرها ، تلد إنساناً يرث مافى الخلية من خلائق الآباء والأجداد منذ آلاف السنين .

وليس قول نظرائهم من «الكيميائيين» بأقل تهافتا من قولهم حين ادعوا أن الإشعاع كاف لتفسير المادة وتراكيبها ، العضوية منها وغير العضوية ، لأنهم ـ أيضا ـ لم يقدموا لنا دليلاً على ذلك ، وهم مطالبون بما يطالب به «البيولوجيون» . إن الشعاع يملأ الفضاء ، فليركبوه كما حللوه ، أو ليدلونا على مكان يتحول فيه الشعاع إلى ذرة ، وتتحول فيه الذرة إلى خلية حية ، إنهم لو فعلوا ذلك فلن يبطلوا قولا من أقوال المؤمنين بوجود الحق سبحانه وتعالى ، لأن

هؤلاء المؤمنين سيرجعون بهذه النتائج إلى الخالق جلا وعلا . [١]

إن النتائج العلمية التى توصل إليها المحايدون فى ميدان العلوم التجريبية وغيرها ، قد أثبتت أن إنكار الوجود الإلهى ، هو قول العلماء لاقول العلم نفسه ـ كما أومأت إلى ذلك آنفا ـ والممتازون من الباحثين ينكرون على هؤلاء المنكرين قولهم ، ويعتبرون تفسير الكون بالإرادة الإلهية أقرب تفسيراً إلى العقل والضمير ، واستقرت لهؤلاء مكانة أثبت وأرسخ من مكانة المنكرين ، ولعل على رأس هؤلاء جميعاً ، السير «أرثر أدنجتون» الذى يقول : «إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث ، وإن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل العاقل ، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر ، وهو الذى يدرك هذه النسب ، ويدرك مابين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة ، وأنه إذا جاز للحركة الآلية أن تخلق فى المستقبل إنسانا آليا ، فليس مما يجوز فى العقول أن تتخيل ذلك الإنسان سائلاً عن الحقيقة أو مباليا بأسباب الحق والباطل ، ولكن الشوق إلى الحقيقة هو لب لباب الحياة ، وهو محور الوجود الإنسانى ... وهذا هو الذى يجعله شيئاً مغايرا لكل ماحوله من الظواهر الطبيعية ، ويجعله قوة روحانية ، ومتى ارتفعت الصيحة فى قلب الإنسان : فيم كل هذا ؟ لم يكن جوابا صالحا لتلك الصيحة أن ننظر إلى التجارب التى نتلقاها من حسنا ونقول : كل هذا هو ذرات وفوضى ... بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراءه روح يستوى الحق فى محرابها ، وتكمن فيها قوابل لتنمية الذات ، بمقدار ما فيها من النزوع إلى تلبية

١ ـ عباس محمود العقاد ، كتاب «الله» ص ٢٨٦ .

عناصر الخيال والجمال» . [١]

هذه شهادةواحد من الثقات المعاصرين فى العلوم الرياضية والفلكية ، وغيره كثيرون ، ممن لايتسع المقام لذكر شهاداتهم ، وكلها تدور حول رفع التناقض ين العلم والدين ، والاعتراف الصريح بأن الكون إنما تحكمه قوة عظمى مطلقة .

تفسير الصراع بين العلم والدين :

ولنا أن نسأل : إذا كان الأمر هكذا ، فكيف نشأت الخصومة بين العلم والدين ؟ والجواب أن تلك الخصومة ترجع إلى إحدى صورتين :

الأولى : أن تكون المعارضة بينهما قائمة على تعصب كل فريق لما عنده دون نظر لما عند الآخر ، ظناً منه أن كل ما لم يدخل فى دائرته فليس له حقيقة فى الواقع . وهذا خطأ فادح ، وغرور كاذب ، لأن التكذيب قل الإحاطة بما يكذب ، مردود بأوليات العقل ، والحكم على الشئ فرع عن تصوره كما يقوول المنطقيون .

الثانية : أن توجد مسائل ، لها حكم من الدين يخالف حكمها من العلم ، وإنما يحدث ذلك حين يتناول الدين شيئاً من موضوعات العلم وحقائق المشاهدات ، ويذهب فيه مذهبا معيناً ، يفرضه على المؤمنين به فرضا ، والعكس صحيح ، وهذه الصورة ترجع إلى خطأ فى تفسيرالدين أو فى تحليل العلم على حد سواء ، لأنه إذا كان الدين حقا والعلم حقا كذلك وجب أن يتناصرا

١ ـ نفس المصدر .

ويتصادقا ، وأما إذا تكاذبا وتخـاذلا ، فإن أحدهما أو كلاهما يكون باطلا وضلالا . [١]

نتائـج البحـــث :

إن الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا البحث ، قد ظهرت فى المدخل الذى صدرته به ، وهى إمكانية إدخال عناصر جديدة مستخلصة من منجزات العلم التجريبى ، التى وصلت إلى درجة «القانون العلمى» فى بناء الأدلة التى نستخدمها فى علم الكلام ، متى سمحت طبيعة الموضوعات التى تتناولها الدراسة بذلك . [٢] والغاية من ذلك أن ننظر بعين العلم المعاصر إلى حقائق الدين ، حتى يكون ذلك أطوع وأسهل فى تشكيل الأدلة على صدق أصول هذا الدين ، بعد أن أصبحت صور الأدلة التقليدية محل نقد وملاحظة وعلى الصورة التى بيناها ، وبعد أن ظهر لنا أيضا أن الأدلة النظرية التى تتخذ الاستدلال النظرى منهجا لها ، لاتقنع إلا جانبا واحدا من جوانب النفس البشرية ، وهو القوة الناطقة ، أما الأدلة التجريبية فلها من التأثير النفسى والشعورى ماليس لتلك ، لأنها تشتق من العالم الواقعى ، وهذا النوع من الاستدلال ، هو الغالب على منهج القرآن الكريم .

إن الاستنبـاط الذى هو أسـاس العمليـة الاستدلالية إن اشتـق من واقع تجربة

١ ـ د. محمد عبدالله دراز . الدين ، ص ٧٦ ، ط . دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٠ م .

٢ ـ قدم العلامة (وحيد الدين خان) فى كتابه «الإسلام يتحدى» ص ١٠٠ ، أدلة علمية على امكان الآخرة ، وهى أدلة غير تقليدية ، وبالبحث يمكن أن يكون غيرها من هذا القبيل ، وهذا مايدعوا البحث إليه .

عملية أو ملاحظة عالم الوقائع والظواهر ، يكون أجدى بكثير على الحقيقة المراد إثباتها من الأدلة النظرية ، وهذا هو السر فى إنتهاج القرآن الكريم لهذا المنهج كما ذكرنا سلفا . ولقد أدرك هذه الحقيقة ، الفيلسوف المسلم الدكتور «محمد إقبال» فقال : كان سقراط يقصر همه على عالم الإنسام وحده وكان يرى أن معرفة الإنسان معرفة حقيقية ، إنما تكون بنظرة فى ذاته ، وما أشد مخالفة هذا لروح القرآن الكريم ، الذى يرى فى النحل على ضآلة حجمه محلا للوحى الإلهى ، والذى يدعو القارئ دائما إلى انظر فى تصريف الرياح ، وفى تعاقب الليل والنهار ، والسماء ذات النجوم والكواكب السابحة فى فضاء لايتناهى ... إن القرآن الكريم يعد السمع والبصر والفؤاد أجل نعم الله على عباده ، ويصرح بأن الله جل وعلا سوف يسأل عنها الإنسان فى الآخرة ، عما فعل بها فى الدنيا ، وقد فات هذا الأمر المتقدمين من علماء الإسلام ـ يقصد علماء الكلام والفلاسفة الاسلاميين ـ الذين درسوا القرآن الكريم بعد أن بهرهم النظر الفلسفى القديم[1] .

إننا نحس أن العلامة «إقبال» قد نقد المنهج النظرى بطريقة مخففة ، ولامجال الآن لبيان مافى منهج المتكلمين من التواءات بعد أن سقنا من قبل شهادة ابن رشد عليها . ولكن الذى نقوله فى ختام هذا البحث ، أننا مأمورون شرعا بأن نكون فى مستوى الواقع الذى نخاطبه بحقائق الدين ، وإذا كان العلم التجريبى من بين المعارف الإنسانية كلها ، هو الذى يتسم بالموضوعية فى

١ ـ تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ، ص ٨ ، ٩ ط. القاهرة ، ١٩٦٨ م ، الترجمة العربية .

البحث ، فإن توظيغ نتائجه الصحيحة لتثبيت قضايا الإيمان في نفوس من لم تثبت لديهم ، أو لدحض شبهات المنكرين الملحدين ، أمر يفرضه الدين نفسه ، الذى أوجب على دعاته أن يتسلحوا بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن . وقد طبقنا هذا المنهج فى قضيتين بارزتين أولاهما مقدمة للثانية . حدوث العالم ، ووجود الله ، فهل وصل البحث إلى الغاية التى كتب من أجلها .. آمل أن يكون كذلك ، وانه لتجربة لاأبغى من ورائها إلا الإسهام فى بناء رؤية جديدة لعلم الكلام فى الإسلام ..

والــلــــه الموفـــق ،،،،